شخصيات خدمت البشرية

هنري دونان

مؤسس الصليب الأحمر
إيثاره أنقذ الملايين

شخصيات خدمت البشرية

هنري دونان

بقلم بام براون

صدر في هذه السلسلة أيضاً:

ماري كوري، بقلم بيفرلي برخ (٣-٠٩٢-١٨٥٠٥-١)
الأب داميان، بقلم بام براون (٢-٠٨٤-٨٥٠١٥-١)
المهاتما غاندي، بقلم مايكل نكلسن (٥-٠٩١-٨٥٠١٥-١)
بوب جيلدوف، بقلم شارلوت غراي
مارتن لوثر كينغ، بقلم فاليري شلوريد وبام براون
فلورنس نايتنغيل، بقلم بام براون
الأخت تيريزا بقلم شارلوت غراي
راول فالنبيرغ بقلم مايكل نكلسن ودافيد وينر

سيصدر قريبا في هذه السلسلة:

آلبرت شفايزر بقلم جيمس بينتلي
سير بيتر سكوت بقلم جوليا كورتني
ديزموند توتو، بقلم دافيد وينر
ليشن فاليزا، بقلم جوزيف كامينسكي

الصـــور
بوريل بواسونا: ٢٤، ٢٥؛ بواسونا: ٧ (أسفل)، ف. بوفيرا: ٧ (أعلى)؛ بريجمان أرت لايبرري: ٣؛ جمعية الصليب الأحمر البريطانية: ٤٣، ٥٨ (أسفل)؛ كامبرا بريس: ٢٣؛ روجية دوران: ١١، ٢٠، ٢١؛ فيلم دو جودي، باريس: ١٨؛ روجيه دوران: ١١، ٢٠، ٢١؛ فيلم دو جودي، باريس: ١٨؛ بجورن فجورتوف: ٥٨ (أعلى)؛ متحف هيرسشيشتليشيه، فيينا (اعارة دائمة من معاهد التوثيق النمساوية): ١٦؛ اللجنة الدولية للصليب الأحمر، جنيف: ٤ (ميوزيو ناسيونالي دل ريزورجيمنتو، تورين)، ٢٩، ٣٠، ٣٢. (كريغسارشيف؛ فيينا)، ٤٣، ٣٥ (أعلى)، ٣٩، ٤١، ٤٢ (أسفل)، ٤٤، ٤٥ (كلها)؛ ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٢ (الأعلى اليسار واليمين)، ٥٧ (اليسار)؛ رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، جنيف: ٤٢ (أعلى)، ٥٢ (أسفل اليسار)، ٥٣، ٥٤، ٥٦؛ ليليان دي توليدو: ٥٥، ٥٧ (يسار)، ٥٩؛ مجموعة مانسيل: ١٢، ٣٣، ٣٥ (أسفل)؛ ٣٦، ٣٧؛ متحف جنيف القديمة: ٩؛ الصليب الأحمر السوفياتي: ٤٩.

رسم الغلاف: بوري فان لون، التصميم: جوفري بليزانس.

تود مطبوعات هكلسي أن تقدم جزيل شكرها للجنة الدولية للصليب الأحمر ولرابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر ولجمعية هنري دونان في جنيف وجمعية الصليب الأحمر البريطانية للمعلومات التي تكرمت بتوفيرها.

كما تشكر اللجنة الدولية والرابطة على عونهما الثمين في توفير الصور ومراجعة مخطوط الكتاب.

وتود التوجه بالشكر أيضاً إلى السيد روجيه دونان: المؤرخ والمُدرّس ورئيس جمعية هنري دونان في جنيف، الذي سمح لها بالرجوع إلى مخطوط السيرة التي ألفها عن هنري دونان طُبع في بريطانيا عام ١٩٨٨
في شركة مطابع هكسلي المحدودة
16 Chalk Hill. Watford. Herts WD1 4BN. United Kingdom.
حقوق الطبع محفوظة لشركة مطبوعات هكسلي المحدودة، ١٩٨٨
الترجمة العربية: رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر جنيف، ١٩٩١.

جميع حقوق الطبع محفوظة. لا يجوز إعادة نشر أي جزء من هذا المطبوع أو نقله بأي شكل من الأشكال وبأي وسيلة كانت، إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو أي وسيلة أخرى لخزن المعلومات دون الحصول على موافقة كتابية من الناشر.

صَمّمت هذه السلسلة ونَشَرتها هيلني هكسلي
البحوث: مارغريت مونتغوميري وديانا بريسكو.
طبع في المجر.

هنري دونان

مؤسس الصليب الأحمر
إيثاره أنقذ الملايين

بقلم بام براون

ترجمة: مها الخفاجي
مراجعة: سهير سلطان

موقعـــــة سولفرينـــو

أخذ الليل يسدل ستاره. وبأصوات تسلل إليها الوهن كان الجرحى يطلبون النجدة ويصارعون لاستنشاق هواء اختلط فيه النار بالغبار. كان لبعضهم رفاق جلسوا إلى جانبهم عاجزين عن تخفيف آلامهم. فلا دواء لديهم لمعالجة الجرحى ولا ماء لإطفاء ظمأهم ولا غذاء لسد رمقهم. لم يكن بمقدور هؤلاء الرفاق سوى أن يشدوا على يد الجريح لمواساته وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة آملين أن تصل الإسعافات قبل فوات الأوان.

وخلال ساعات، كانت ساحة المعركة، التي اشتد فيها الصخب والحركة ما بين دوى المدافع وهزيم الأبواق وقعقعة البنادق وصرخات الرجال المشتبكين بجنون، قد تحولت إلى أرض يعمّها الدمار. وفي هذا الحطام ارتفع صهيل جواد يتألم، فإذا بجندي يستجمع قواه ليقف قائلاً: «سأكون بجوارك بعد قليل يا صديقي».

ابتعد بيير متخطياً الأسلحة وجثث الفرنسيين والنمساويين المتناثرة فوق الأرض. وبعد هنيهة سمع الرجل الجريح طلقة تلاها سكون القبور؛ سكون لم يكن يقطعه سوى طنين الذباب وتأوهات الجرحى.

عاد بيير أدراجه، فإذا برجل يستوقفه متوسلاً: «أرجوك، أعطيني قليلاً من الماء. هناك بركة صغيرة في هذا الاتجاه.. إنني أذكرها». هزّ بيير رأسه: «ولكنها مليئة بالجثث، لم يعد ماؤها صالحاً للشرب».

الفوضـــــى

وقعت هذه المعركة عام ١٨٥٩. وكانت ساحتها سولفرينو بإيطاليا. في الكتب التي تعالج محاولات توحيد الدويلات الإيطالية، تعرض موقعة سولفرينو على أنها موقعة الانتصار الساحق. ولكنه انتصار انتزع حياة آلاف الجنود الذين راحوا ضحيته أو حطم حياتهم تماماً. في تلك الأيام، كانت مأساة كهذه تعتبر أمراً طبيعياً. فقد صرح قائد عسكري شهير، باستسلام، بمناسبة المجزرة التي خلفتها معركة سابقة: «من أراد شيئاً دفع الثمن» لقد كان الجنود بمثابة الأدوات

«لنذهب إلى لومباردیا ففيها سترى وتعرف الثمن الذي يشترى به هؤلاء الرجال ما يدعونه بكل عجرفة «المجد» والمقابل الباهظ الذي يكلفه هذا المجد!».

«تذكار سولفرينو»
هنري دونان

في الرابع والعشرين من شهر حزيران/يونيو ١٨٥٩، خاض جيش الأمبراطورية النمساوية وجيوش تحالف فرنسا وسردينيا، معركة دامت ١٦ ساعة قرب قرية سولفرينو الواقعة في شمال إيطاليا. كانت المعركة دامية إذ راح ضحيتها ٤٠ ٠٠٠ جندي ما بين قتيل وجريح.
أما المساعدة الطبية للجرحى فكانت منعدمة في حروب ذلك العهد. غير أن رجلاً تطوع لمساعدة الجرحى. هذا الرجل هو هنري دونان الذي غيرت المآسي التي شهدها مجرى حياته كما غيرت فيما بعد المواقف المعتمدة في القتال في كل أنحاء العالم.

التي يمكن استبدالها والفوضى المتمخضة عن المعركة كانت أمراً متوقعاً وجانباً ملازماً للحرب.

ومنذ ذلك اليوم القائظ من شهر حزيران/يونيو، وقعت معارك كثيرة، خاضها الجنود بأسلحة مدمرة. غير أن ما يميز حرب اليوم عن حرب الأمس هو وجود وحدات طبية مجهزة في الجيوش ومتأهبة دائماً لإسعاف الجرحى.

وعلى خيم هذه الوحدات ومراكزها وسياراتها يظهر بوضوح رمز الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر المعترف به عالمياً الذي يبين موقع اللجوء الذي تحميه الاتفاقيات الدولية من كل هجوم. وأضحى هذا الرمز أمراً مسلماً به لكثرة ما نشاهده. إلا أن فكرة هذا الرمز لم تظهر إلى حيز الوجود إلا بعد معركة سولفرينو.

فقد شاءت الأقدار أن يجد رجل أعمال نفسه في كاستيليون في ذلك الوقت، أتى المدينة لأسباب تتعلق بعمله فغيرت المأساة التي شهدها في سولفرينو مجرى حياته وحياة ملايين الناس معه. ومن هول الصدمة التي خلفتها في نفس هذا المواطن فوضى الحرب وما جرّته من معاناة، ولدت حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر.
هذا الرجل هو هنري دونان.

طفولة هنري دونان

ولد هنري دونان في الثامن من شهر أيار/مايو ١٨٢٨ في مدينة جنيف، بسويسرا؛ المطلة على البحيرة والمحاطة بالجبال. وقد نشأ وترعرع في أسرة بورجوازية تقية كان هو بكر أطفالها الخمسة. كان فخوراً بأصله نظراً لانتماء والديه إلى «أسرتين عريقتين». كان اهتمامهما منصباً على خير المجتمع أكثر منه على الثروة الشخصية.

حظيت أسرته باحترام كبير وحمل أباه، جان جاك، مسؤولياته، كمواطن سويسري من أعيان المدينة، محمل الجدّ. وبوصفه عضواً متطوعاً في غرفة الوصاية والقوامة، عنى السيد جان جاك دونان بالشباب والسجناء.

وفي السادسة عشرة بدا هنري أصغر من سنه وكأنه يرفض أن يشب عن الطوق وأن يترك عالم طفولته السعيد.

وعندما بلغ هنري دونان السادسة من عمره قامت أسرته برحلة عبر

وادي نهر الرون إلى مدينة مارسيليا في جنوب فرنسا. وبفضل هذه المغامرة، اكتشف هو وأشقاؤه البحر بانبهار.

«سأؤلـــف كتابـــاً»

لم تكن الغاية من هذه الرحلة، السياحة فقط. فقد طُلب إلى السيد جان جاك دونان أن يزور السجناء السويسريين الذين كانوا يقضون مدة عقوبتهم في سجن تولون. اصطحب الأب دونان ولده هنري معه الذي كان قد ورث عن أمه الرقيقة والتقية، رقة المشاعر. راع الصبي منظر هؤلاء الرجال وهم يتجولون في ساحة السجن المظلمة المحاطة بأسوار سميكة من الحجارة الداكنة تسقفها بقعة صغيرة من السماء الزرقاء. وفي وقت لاحق رأى الصبي السجناء المنبوذين ينجزون أعمالاً شاقة مثل تكسير الحجارة وهم مكبلون بالأغلال كالمنبوذين.

ابتعد الصبي صامتاً. وفجأة توقف وهو يقول: «عندما أكبر سأؤلف كتاباً لإنقاذهم».

وفي نومه كان هنري يحلم بهؤلاء الرجال المكبلين بالسلاسل الذين فقدوا كل آمالهم وكرامتهم، وانقطعوا عن أسرهم وعن مسرات الحياة. وظل طيف هؤلاء الرجال يلاحقه طوال حياته.

ثم عادت الأسرة إلى جنيف فتلاشت تجربة تولون من ذاكرة هنري لفترة. اتسمت حياته بالهدوء والسعادة، ولعل أسعد أوقاته جميعاً هي تلك الزيارات التي كان يقوم بها لمزرعة جده وجدته بحدائقها الغناء. وظل هنري، بعد سنوات طويلة يتذكر ويُعدّد أنواع الثمار التي كانت تنمو في هذه المزرعة وكأنه لا يزال يتذوق طعمها.

وعندما بلغ الصبي عشرة أعوام التحق بالمدرسة الإعدادية. غير أن ذكرياته عن تلك الفترة تكاد تنحصر في الكتب التي قرأها وهو يقضم الفواكه التي أرسلها عمه مثل التين المجفف والزبيب والجوز واللوز.

وفي عام ١٨٤٢، ترك هنري المدرسة، وهو في الرابعة عشرة من عمره. وكانت موهبته في الكتابة قد برزت، وإن اقتصرت على وصف مفصل لكعكة أو سرد وجبة غذاء أثناء زيارة إلى مارسيليا.

مسقط رأس هنري دونان في جنيف بسويسرا. كان والداه ثريين، أحبّ هنري دونان أمه حباً خالصاً لطيبتها الكبيرة.

هنري دونان والنزعة الإنسانية

«منذ أن بلغ دونان سن الثامنة عشرة، خصص أوقات فراغه لزيارة المعوزين والمعوقين والمحتضرين مقدماً لهم العون والسلوى. وعندما بلغ العشرين من العمر، أمضى عصريات الأحد في قراءة كتب الأسفار والتاريخ أو مبادىء العلوم على السجناء في سجن جنيف. بدأ دونان يعي بمنبوذي المجتمع في وقت السلم، وذلك قبل أن يعني بجرحى الحرب بوقت طويل».

من «مذكرات» بقلم هنري دونان.

في الثامنة عشرة من عمره، كان هنري دونان شاباً تقياً جاداً. وحينذاك تركت أسرته الكنيسة الرسمية لتنضم إلى كنيسة النهضة التي ميزّ منهجها الإحسان الفعال والعطاء مما جاد به الله.

ومن المبادىء التي دعت إليها هذه الكنيسة: الوحدة والتعاون والاحترام المتبادل التي تأثر بها هنري تأثراً بالغاً وأرسى عليها حياته.

أزاء وضع الفقراء اهتزت مشاعر الشاب فانضم إلى جمعية الصدقة التي كان أعضاؤها يسعون معنوياً ومادياً إلى مساعدة الفقراء والمرضى في جنيف، ولا شك في أن ذكريات سجن تولون البعيدة، دفعته إلى تخصيص عصريات يوم الأحد لزيارة سجن مدينته. كان يقرأ الكتب على السجناء ليفتح العالم أمام هؤلاء الرجال الذين صارت جدران الحجر وقضبان الحديد تفصلهم عنه. أحب السجناء حماس هذا الشاب واهتمامه بهم وصاروا يتطلعون إلى زياراته.

هنري دونان وجمعية الشبان المسيحيين

عندما بلغ هنري دونان سن الحادية والعشرين، كوّن مجموعة نشيطة من المبشرين الشباب، كان أعضاؤها يلتقون في منزله مرة في الأسبوع.

وفي عام ١٨٥٣ بدأ حياته المهنية في الأوساط المصرفية ونجح فيها، فسعد والده بذلك. وشعر هنري بأن واجبه الديني يقضي بأن يستخدم مواهبه ليصبح تاجراً ناجحاً، ثم استخدام نجاحه ومواهبه لمساعدة المعوزين. وأسهم بشكل فعال في إنشاء جمعية الشبان المسيحيين في لندن.

بلغ به الحماس مبلغاً دهش له زملاؤه أحياناً. وكتب أحد أصدقائه مرة يقول: «لولا الحكمة التي تنقصه للأسف الشديد، لكان هنري جوهرة مكنونة، فله طاقة وحماس مدهشين».

وظل هذا الحماس عنصراً في غاية الأهمية في حياة هنري دونان، غير أن افتقاده للروح العملية والمنهجية كلفه الكثير.

وفي عام ١٨٥٥ آمن هنري دونان بأهمية التعاون بين البلدان والأوساط البروتستانتية فدفعه ذلك إلى اقتراح تكوين اتحاد عالمي

لجمعيات الشبان المسيحيين، واجتماع مندوبيها مرة في السنة في أحد بلدان الاتحاد، وفي شهر آب/أغسطس ١٨٥٥ عقد في باريس أول هذه المؤتمرات العالمية. وأدى هنري دونان دوراً هاماً في مساعدة جمعية الشبان المسيحيين على ما أصبحت عليه اليوم، أي منظمة عالمية قوية. وكان من أهم محرري ميثاق المنظمة الذي يستخدمه كل أعضائها حتى يومنا هذا.

كما وجدت العبودية صدى خاصاً لدى هنري دونان الذي كان يتعاطف مع كل الذين يأنون تحت نير الاستعباد أو المصفدين بالأغلال. وفي الولايات المتحدة الأمريكية كان ملايين الرجال والنساء والأطفال السود الذين اختُطف أجدادهم بالقوة وبوحشية من موطنهم في أفريقيا، يعيشون ويعملون ويموتون وهم ملكاً للبيض. وما أن اكتشف دونان ذلك حتى تبنى قضية الرقيق في أمريكا.

كان التسامح العالمي حلمه. وتميزت نظرته بالوضوح والبساطة والجمال. وتمتع بقدرة بث الحماس في الآخرين وحملهم من ثم على الدفاع بدورهم عن القضايا التي كان يدعو إليها.

كانت جنيف، في شباب هنري دونان، مدينة رائعة-إن كنت تنتمي إلى الطبقة الثرية. ولكن المعاناة، بل وحتى الجوع، لم يكونا غريبين عنها بين العامة.

ومن أولى تجارب الصبي هنري، زيارة قام بها بصحبة أبيه، إلى سجن وصدمته لما رأى. وقطع على نفسه وعداً قائلاً: «سأكتب كتاباً عن ذلك عندما أكبر».

الجزائـــــــر

حمل عمل هنري دونان الجديد، بطلنا إلى الجزائر. فبهر بسحر هذه المنطقة من العالم التي اكتشفها للمرة الأولى. إذ كان أوروبيو القرن التاسع عشر يعشقون كل ما هو غريب وشاعري، ولكنهم كانوا يؤمنون، في ذات الوقت، باستعمار الأراضي وتشييد الأمبراطوريات.

وفي هذا السياق، لم يكن دونان يختلف كثيراً عن رجال عصره. فكانت الجزائر بالنسبة له فرصة للتبشير بالإنجيل وكسب المال الكثير في آن معاً. وقرر إنشاء مزرعة وبناء مطحنة حبوب في الجزائر، وأخذ يحاول بكل الوسائل الممكنة، أن يجمع مالاً وأن يكتسب دعم أصحاب النفوذ من أجل مشروعه الجديد.

وجد دونان الدعم اللازم وبنى طاحونتيه. غير أن حماسه صرفه عن الانتباه لمشكلات عديدة. وبمرور السنين، أخذت تجارته تتدهور. وفي تلك الفترة توفيت إحدى عماته، فورث عنها مالاً استثمره في مشروعه، فلم يُجدِ ذلك نفعاً. وفي ذلك الحين كان هنري دونان قد بلغ من العمر ثلاثين عاماً. وكانت مشكلته تكمن في الواقع، في كون الجزائر مستعمرة فرنسية. إذ لم يكن دونان فرنسياً، وبالتالي اعترضته صعوبات مستمرة في الحصول على ترخيص لاستعمال مصدر ثان للماء لتشغيل طاحونتيه.

وأخيراً رأى دونان أن أمله الوحيد هو الاتصال مباشرة بالأمبراطور نابليون الثالث. لم يكن من السهل بلوغ نابليون الثالث في باريس، وناهيك عن الأمر وهو يخوض حرباً في إيطاليا.

في الثالث من شهر أيار/مايو من عام ١٨٥٩ أعلن نابليون الثالث أنه سيقود الجيش الفرنسي في إيطاليا من أجل تحريرها من سيطرة النمسا، ويضمن بذلك وجود بلد صديق على الحدود الفرنسية.

كللت الحملة ضد النمسا بالنجاح منذ الساعات الأولى. وكان «المسنكي»، هذا السلاح الرهيب لجنود نابليون الثالث من المشاة، دوراً هاماً في تحقيق النصر.

حارب الإيطاليون إلى جانب جيش نابليون الثالث للتحرر من سيطرة النمساويين، وكانت المعركة الحاسمة لهذه الحرب على وشك الإندلاع.

وفي سعيه للحصول على الامتيازات الخاصة بمشروعه، قرر هنري

دونان أن يتبع الجيش الفرنسي. وفي بدلته البيضاء حطّ هنري دونان الرحال مقتفياً أثر الأمبراطور.

معركـــة سولفرينـــو

سار النمساويون طوال الليل لبلوغ موقع قوات التحالف، عاقدين العزم على الهجوم في الساعة التاسعة صباحاً، غير أن القوات المتحالفة قررت أن تفاجئهم. وفي الرابع والعشرين من شهر حزيران/يونيو عام ١٨٥٩، هبت هذه القوات من نومها قبل بزوغ الفجر. وبعد أن جرع الجنود قهوة الصباح على عجل مع تباشير الصباح الأولى باشروا السير باتجاه العدو.

توقف الجيش النمساوي بعد مشاق مسيرة طويلة، فدخل المعركة ولم يكن قد تهيأ له شيء من الزاد سوى جرعات مضاعفة من الكحول. وأثناء المعركة التي دامت خمس عشرة ساعة، لم يعان جنود الجيشين من شدة المعركة فحسب، بل عانوا أيضاً من الجوع والعطش والاعياء الشديد.

وفي ذلك العهد، جرت العادة بين الناس على الذهاب إلى المرتفعات المحيطة بساحة المعركة لمشاهدة ما يجري من مسافة آمنة، وكأن المعركة عرض ترفيهي. بل وكان البعض يجلب طعامه معه وينظر إلى القتال الذي كان يبدو عن بد، وكأنه يجري بين دُمى صغيرة تتحرك وسط نفثات الدخان. ولكن ما كان يبدو كالدُمى من بعيد كان في الواقع ثلاث مئة ألف جندي من لحم ودم يخوضون حرباً ضارية. ودارت رحى هذه المعركة، المعروفة باسم معركة سولفرينو، داخل وحول أربع قرى تقع على مرتفعات شمال إيطاليا، قرب سولفرينو.

المجـــزرة

كان ما يحدث في ساحة المعركة، أبعد ما يكون عن الخيال والمسرح. فهدير المعركة يصم الآذان، وفيه ترتفع صرخات الجرحى وصهيل الخيل ودوي المدافع وصفير طلقات النمساويين. في هذه الفوضى، ووسط الغبار والدخان، كان الرجال ويشتبكون ويسقطون. كانوا يتقاتلون بالبنادق والرماح والسيوف، فإذا فقدوا أسلحتهم كلها تراشقوا بالحجارة وتصارعوا بالأيدي. حولت المعركة الجنود إلى

واجه مشروع هنري دونان في الجزائر مشاكل عديدة. وكان دونان عضواً متحمساً في كنيسة النهضة. فكانت هذه الكنيسة تدعو أعضاءها الذين أسبغ عليهم الله بنعمه إلى مشاطرة هذه النعم مع المحتاجين. كان النجاح الاجتماعي والاقتصادي محموداً، ولكن كان ينتظر من المسيحي التقي أكثر من ذلك. تعلم دونان مبادىء اللغة العربية وقطع على نفسه عهداً بمعاملة عماله الجزائريين بالحسنى.

تعتبر معركة سولفرينو التي تقاتل فيها الفرنسيون وحلفاؤهم من ناحية والنمساويون من الناحية الأخرى، عام ١٨٥٩، من أكثر معارك القرن التاسع عشر ضراوة. فاشتبك في ذلك اليوم الطويل ثلاث مائة ألف جندي، فجرح أو مات أربعون ألف منهم. ودامت هذه المجزرة ست عشرة ساعة. وكتب دونان يصف المعركة قائلاً: «هنا يجري التحام مباشر ورهيب ومروع بين النمساويين والفرنسيين، يشتبكون فيه فيلوس بعضهم البعض ويتقاتلون فوق الجثث الدامية، مستخدمين في الضرب أخامص البنادق... تحولت المعركة إلى مجزرة حقيقية».

وحوش كاسرة أسكرتها الدماء وجنون المعركة فكانوا ينهشون أجساد أعدائهم بأسنانهم. كانوا يتساقطون تحت وابل الطلقات تارة ويُسحقون تحت حوافر الخيل تارة أخرى. كانت السيوف تعمل فيهم قطعاً وقذائف والمدافع تسحقهم في الأرض سحقاً.

وقرية بعد قرية، وبيت بعد بيت، قاتل الجنود بضراوة على طول خمسة عشر كيلومتراً مخلفين وراءهم الموت والدمار.

هالَ دونان هذا الجنون المحض الذي تميز به القتال. ولم تعد للرحمة أي وجود في هذا الجحيم حيث يجهز الجنود على الجرحى بإخامص بنادقهم.

اختفى الماء تماماً من ساحة القتال، والشمس تحرق بلهيبها الرجال المنهكين الذين يجاهدون لاستجماع قواهم لمواصلة القتال.

وبعد ساعات من القتال المرير، سقط معقل النمساويين في سولفرينو،

وأخذت المدافع الفرنسية تمطر الجيش النمساوي بوابل من القذائف من أعلى التلال.
فقد النمساويون كل أمل في النصر، ففروا يجرون أذيال الخيبة.

الليلة التالية للمعركة

حاول الجيش النمساوي في هزيمته التقاط أكبر عدد ممكن من الجرحى ونقلهم في الشاحنات أو العربات التي كان يجدها في الطريق. إلا أن آلاف الجرحى التعساء تركوا لوحدهم ملقيين على الأرض التي تشربت بدمائهم.
امتدت ظلال الغسق على ساحة المعركة المهجورة، المترامية الأطراف، فطفق الجنود الفرنسيون يبحثون في أرجائها عن زميل أو صديق. فإذا عثروا على أحدهم. سارعوا إلى مساعدته.
أسدل الليل ستاره، وتلألأت التلال بالنيران التي أعطت الجنود شيئاً من الدفء الذي واساهم قليلاً عن انعدام اللوازم الطبية والغذاء والماء. إذ تلقى الجنود أمراً بالتخلي عن حقائبهم عند الهجوم، فُفقد بعضها في خضم المعركة وسرق البعض الآخر من قبل فلاحي المنطقة الفقراء الذين اعتبروها نعمة من السماء.
ولعل أشد عذاب عاشه الجنود، هو نقص الماء. فقد امتلأت البرك بالدماء. أما الجنود الذين كانت قِرَبهم لا تزال تحوي قليلاً من الماء، فلم يكونوا ليستطيعوا منعها عن رفاقهم المحتضرين، ولكن سرعان ما كان لهيب العطش يستبد بهم أيضاً.

الأمبراطور نابليون الثالث. تبعه دونان إلى إيطاليا لالتماس الامتيازات لمشروعة في الجزائر. فإذا به يجد نفسه ملتمساً المساعدات الطبية لآلاف الجرحى.

آلاف الجرحـــى

طلع صباح الخامس والعشرين من شهر حزيران/يونيو على مشهد مروع... حقول مدمرة وأسلحة مهجورة ورجال منهوكو القوى غمرهم اليأس، وقتلى كثيرون.
بلغ عدد القتلى والجرحى الذين خلفتهم المعركة في الجيوش النمساوية والفرنسية والإيطالية: ٣ مارشالات و٩ جنرالات و١٥٦٦ ضابطاً من كل الرتب و٢٠ ٠٠٠ جندي. ولم يمض شهران حتى كانت هذه الأرقام قد تضاعفت، فتبين أن ٤٠ ٠٠٠ رجل قد قتل أو جرح في ذلك اليوم المشؤوم.

«فإذا عثر على مقاتل يعرفه انحنى عليه محاولاً انعاشه، أو شد على يده، أو أوقف نزيفه، أو ربط بمنديله طرفه المكسور، ولكن دون أن يستطيع توفير شيء من الماء للجريح المسكين. كم من الدمع الصامت قد سكب من المآقي في تلك الليلة الكئيبة التي فقدت فيها كل معاني الكرامة الزائفة واحترام الإنسان».

هنري دونان من
«تذكار سولفرينو»

ظل الكثير من الجنود الجرحى في العراء دون ماء طوال الليل فلقوا نحبهم، علماً بأنه كان في الإمكان إنقاذهم. أما الذين نجوا من الموت فكانوا في حالة يرثى لها. واغتنم اللصوص هذه الفرصة فتسللوا إلى ساحة المعركة ليلاً ونهبوا الموتى والأحياء على حد سواء.

كانت الجراح بشعة، مليئة بالشظايا والتراب. وفي تلك الأيام لم يكن للمضادات الحيوية والمواد المعقمة وجود وبالتالي كان الاحتضار البطيء والأليم المصير المحتوم لكثير من الجرحى حتى وإن كانت جراحهم بسيطة.

أمام هذه الجثث، لم يكن دونان ليستطيع أن يتخلص من صورة رجال كانت الحياة تدب فيهم بالأمس. نظر إلى جندي شاب يصفه كالآتي: «شوّه السيف والشظايا وجهه الجميل فلم يعد في الإمكان التعرف عليه»، وفكر في الحب والرعاية التي أُحيط بهما في الماضي قبل أن يلقى هذه النهاية المريعة.

ولا يقل الموت في الحرب الحديثة، بشاعة عن الموت الذي لقيه الجنود في معركة سولفرينو. ولكن جنود اليوم أصبحوا يحملون معهم حصص غذائية للطوارىء وحقائب بالضمادات والأدوية الأساسية. ومن ثم فباستطاعتهم تخفيف الآلام ووقف الالتهابات. وأضحى نقل الجرحى أرحم مما كان عليه. إذ كان الجرحى، في معركة سولفرينو ومعارك ذلك العصر، يحملون على نقالات بدائية أو على ظهر الدواب إلى المراكز الطبية في ظروف صعبة ودون مسكنات للتخفيف من حدة آلامهم.

في ذلك الحين، كانت تقام قرب ساحة المعركة وحدات طبية تميزها راية سوداء. غير أن هذه الوحدات لم تكن بمأمن من القصف عندما كان القتال على أشده. وحتى لو نجت من القصف كانت المساعدات التي تقدمها بدائية للغاية. إذ لم يكن الأطباء حينذاك، يعرفون الكثير عن المسكنات ومنع التقيُّحات. كانت السرعة عنصراً أساسياً في التخفيف من صدمة البتر. فكان الأطباء يتفاخرون بعدد الثواني التي تلزمهم لبتر ساعد أو ساق.

تُنقل الجرحى من ساحة المعركة إلى القرى المجاورة حيث تحولت كل الكنائس والأديرة إلى مستشفيات. وتكدس الجنود الجرحى في كل الأكواخ والكنائس وحتى المنازل الخاصة، وفرشت أرصفة الشوارع

«هاك ابن يعشقه والداه، وقد ربته أمه سنين كثيرة، واعتنت به فكانت تجزع لأية وعكة تلم به. وهذا ضابط لامع، عزيز على أسرته، ترك في بيته زوجة وأولاداً. وذاك جندي شاب ودع خطيبته، وكما هو الحال غالباً، ترك أباً مسناً وأماً وأخوات. ها هو الآن مُمدد في الوحل والتراب، غارق في دمه!»

هنري دونان من «تذكار سولفرينو»

بحواشي رقد عليها الجرحى وشدت أقمشة ممزقة لحمايتهم من لهيب الشمس المحرقة.

دونان يُنظم المساعدة

لم يكن بمقدور دونان أن يقف مكتوف اليدين أمام هذه المآسي. فهب لنجدة الجرحى الذين لم ير في حياته مثل حالاتهم رغم خبرته السابقة مع المرضى.

زاد الغباء والجهل والخرافات من آلام الجرحى التعساء الذين استبد بهم العطش. وبعضهم حمل نفس الضمادة المتسخة لساعات وعانى من الأربطة التي شدت بقوة على الجراح المتقيحة.

باشر دونان العمل في قرية كاستيليون، حيث رمت به الأقدار. وكان قد نقل إلى هذه القرية وحدها، ما يزيد على تسعة آلاف جريح. حصل دونان على الماء والضمادات وأخذ يتنقل بين الجرحى ويبذل كل ما في وسعه لمساعدتهم، فنراه هنا يبلل شفتي أحد الجنود بالماء، ويحاول هناك تنظيف جروح جندي آخر. ولم يكن باستطاعته في أغلب الأحيان سوى مواساة رجل يحتضر.

أما النساء القادرات على تقديم يد المساعدة فكنّ نادرات. إذ كانت غالبيتهن مشغولات برعاية الضباط الجرحى الذين أوتهم الأسر في منازلها. لكن ذلك لم يثبط من عزم دونان. فكان يلزم توفير الماء والغذاء لهؤلاء الرجال وتنظيف جراحهم وتغيير ضماداتهم.

ركّز دونان عمله على كنيسة تكدّس داخلها خمسمائة جندي واستلقى مائة آخرون في الشوارع خارجها. ومن هذه الكنيسة التي أصبحت مقره، أخذ ينظم فريقه من المساعدين الذين لم يفتأ عددهم يتزايد.

لحقت بدونان «ممرضاته» وكن نساء بسيطات لا خبرة لهن بالتمريض، ولكنهن طيبات وصبورات ورقيقات. كن إيطاليات وكان الجرحى أجانب يخشونهم. ولكن دونان ردد دون كلل «كلهم أخوة». وسرعان ما تناقل السكان هذه العبارة وأخذوا يرددونها: «كلهم أخوة، كلهم أخوة».

استعان دونان أيضاً بالصبيان فكانوا يجرون ذهاباً وأياباً بين الكنيسة

«أين ذهبت الآن تلك النشوة الباطنية العميقة التي أحبت ذلك المحارب الباسل بهذا الغموض وهذه الغرابة عند بدء الحملة ومنذ يوم موقعة سولفرينو، في تلك اللحظات التي جازف فيها بحياته، وتعطشت فيها شجاعته لدم نظرائه فسارع إلى سفكه بهذه الخفة؟!».

هنري دونان من
«تذكار سولفرينو»

«سيارة إسعاف» في عهد معركة سولفرينو. في الواقع لم يكن سيارات الإسعاف وجود آنذاك، فكانت كل عربة تستخدم لنقل الجرحى. ولم تكن الرحلات على الطرق الوعرة مريحة كما كانت تؤذي الجرحى بل وتؤدي بحياتهم أحياناً. فإذا حدث وأن أحاط الجنود بمثل هذه العربة في خضم المعركة، فلم يكن للعدو مجال لمعرفة أنها تنقل جرحى فإنها كانت معرضة للهجوم. ولكن، في غضون سنوات قليلة، نجح هنري دونان في تغيير هذا الوضع.

وأقرب الينابيع لتوفير الماء النقي للجرحى وعمل هؤلاء الصبية ثلاثة أيام دون أن يحظى بعضهم بقسط من الراحة.

أعطى دونان أوامره للجنود والأطباء والقرويين والمتطوعين، فرضخوا لها جميعاً عن طيب خاطر. ونجح اصراره في إطلاق سراح طبيبين أُسرا أثناء الحرب لكي يساعداه في معالجة الجرحى.

لم يكن دونان رجل أعمال فعال فحسب، بل كانت لديه أيضاً خبرة في مجال تنظيم العمل الاجتماعي. وكرس كل مهاراته لهذا العمل الجديد. وطلب دونان من حوذي أن يذهب بعربته إلى مزرعة قريبة لإحضار بعض المؤن الأساسية. جلس إلى جانب الجرحى ليصغي إلى رغباتهم الأخيرة ويوعدهم بالكتابة لوالديهم أو زوجاتهم أو خطيباتهم. وكثيراً ما كان هذا الوعد يرفع عن هؤلاء الرجال عبئاً ثقيلاً فكانوا يستسلمون للموت بكل هدوء.

في المدن والقرى المجاورة بذل مئات الناس، مثل هنري دونان، قصارى جهدهم لمساعدة الجرحى والمحتضرين. وشعروا مثله بعبث كل ذلك، ولكن لم يكن بوسعهم إلا أن يواصلوا العمل.

«لو كنت قد عُولجت...»

عمل الأطباء والمتطوعون دون انقطاع ودون أن يحظوا بقليل من النوم. غير أن غياب التنظيم والتنسيق صعق هنري دونان. قدّر شجاعة المتطوعين وتفانيهم تقديراً كبيراً ولكنه استغرب عدم توقّع هذا العدد الهائل من الجرحى، وعدم تحضير المزيد من العربات والضمادات والأدوية والمتطوعين لمساعدتهم. فكر دونان في كل المعارك التي وقعت أثناء حياته وتلك الحروب التي خاضها الناس في القرون السابقة، فكر في كل هذه المآسي والمعاناة التي لم يكن لها أي مبرر في أغلب الأحيان، فراعته هذه الأفكار.

وهذا رقيب مسن خاض عدة معارك في حياته، يقول لدونان بحزن عميق ومرارة كبيرة: «لو كنت عولجت في وقت مبكر لكُتبت لي الحياة، ولكني سأموت هذا المساء».

وكتب دونان بأسى قائلاً: «في ذات المساء فارق هذا الرجل الحياة». دفعه أحباطه وسخطه وحزنه الكبير إلى تأسيس الصليب الأحمر.

«كلهم أخوة»

قامت النساء بدور رائع بين هؤلاء الجنود الأجانب، الغرباء عن هذه الأرض، واعتنى بهم القرويون البسطاء برقة وصبر وحنان، مرددين كلمة هنري دونان «كلهم أخوة».

توالت أيام العمل المضني، فشعر دونان بأعياء شديد يشوبه اليأس. إذ لم يكن كل ما يفعله ليكفي، ومهما عمل، ظل هناك من هم بحاجة ماسة إلى مساعدته. لم يكن يجرؤ على التوقف عن العمل خوفاً من أن يظل أحد الجرحى دون ماء لو فعل أو أن يلفظ أنفاسه الأخيرة دون أن يقف بجانبه إنسان. عمل دون انقطاع ثلاثة أيام ليل نهار حتى أمكن الشروع في نقل الجرحى إلى مستشفيات المدينة.

إجـــلاء الجرحـــى

حوّلت العربات إلى سيارات إسعاف لنقل الجرحى فابتعدت ببطء تحت أشعة الشمس المحرقة مثيرة وراءها غيوماً من الغبار.

وكلما توقفت العربات في نقاط معينة على الطرق الوعرة كانت نساء

وليتك هلكت فجأة أيها الشهيد البائس مضروباً برصاصة على أرض المذبحة وسط تلك الأهوال العظيمة التي يسمونها المجد!

ليتك دفنت حياً... لما طال عندئذ عذابك الرهيب. لكنك الآن تمر بعذابات متتابعة كتب عليك أن تتحملها. ولن تدرك المجد وإنما يدركك الألم المفرط ويليه الموت البارد الموحش بكل أهواله».

هنري دونان
«تذكار سولفرينو»

القرى يخرجن من بيوتهن مسرعات إلى الجرحى ليوزعن عليهم ما تبقى لديهن من فاكهة وحساء ونبيذ، وليزلن من عنهم الغبار ويستبدلن ضماداتهم، علماً بأنهن كن يعانين من فقر مدقع في أغلب الحالات إذ كانت الجيوش قد استحوذت على مؤن هؤلاء السكان البؤساء.

وما أن بدأ الوضع ينتظم في كاستيليون، حتى ذهب دونان إلى بريشيا حيث نُقل العديد من مرضاه. وفي تلك المدينة نصب ١٥ ألف سرير. وأبدى سكان المدينة كرماً يفوق الوصف أمام توافد هذا العدد الكبير من الجنود الجرحى، إذ بلغ عددهم ٤٠ ٠٠٠ شخصاً، واستضافوا في وقت من الأوقات ٣٠ ٠٠٠ مريض وجريح.

ودهش دونان لتفاني الأطباء المائة والأربعين وطلاب الطب والمتطوعين.

وتعرف دونان على العديد من المرضى الذين عالجهم في كاستيليون. كانوا يتلقون رعاية أفضل هنا غير أن تأخر العلاج كان لا يزال يودي

بانتهاء المعركة، تكدس الجرحى في كل المباني المتاحة في القرى المجاورة. واستقبلت قرية كاستيليون وحدها، حيث أقام هنري دونان، تسعة آلاف جريح وفي بدلته البيضاء، عمل دونان دون كلل بين الجرحى والمحتضرين ونجح، بفضل موهبته القيادية، في تنظيم فريق من ٣٠٠ متطوع لمساعدته (مشهد من فيلم قصة هنري دونان» الرجل ذو البدلة البيضاء»، الذي تم تصويره في كنيسة شيسا ماجيور).

بحياة العديدين. وقتلت الحمى وتسمم الدم رجالاً كان لدونان أمل في شفائهم.

«كانت القطارات المحملة بالجرحى تدخل المحطات المزدحمة بالسكان الواجمين المكتئبين الذين أضيئت وجوههم بالنور الخافت لمشاعل الزيت. ذلك الجمهور المتكدس الذي يختلج بالانفعال والعطف، ويبدو وكأنه يريد أن يقطع أنفاسه ليتحسس بسمعه الأنارة أو العويل المكتوم الذي يصل إليه من القوافل الرهيبة».

هنري دونان

حلـــم دونـــان

لم يفتأ دونان يعتقد، طوال هذه الفترة، أن مساعدة الجرحى كان يمكن أن تتم بشكل أفضل بكثير. لم تكن النوايا الحسنة والرغبة في المساعدة تنقص الناس، غير أن ما كان ينقصهم هو التنظيم ومعرفة ما ينتظر منهم. وكتب دونان وفي وقت لاحق يقول: «مع كل هذه الطيبة والنوايا الحسنة، ظل الرجال يموتون. فما عسى أن تفعله مجموعة صغيرة من الناس المتحمسين أمام هذا العدد الضخم من الجرحى، وهي منعزلة ينقصها التنظيم؟».

والذي حدث «هوانه بعد مرور أسبوع أو عشرة أيام فترت همة سكان بريشيا وخبا حماسهم وانتهكهم التعب والإرهاق باستثناء بعض الأمثلة المشرقة».

شعر دونان باليأس إزاء هذا الوضع فالإمدادات متوافرة والأشخاص ذوو النوايا الطيبة متأهبون للعمل. غير أن التنظيم الملائم كان منعدماً. فكل يوم يمر يأخذ معه مئات الأرواح. ولكن أن الحل أخذ يتجسد شيئاً فشيئاً.

وتساءل دونان: لو أرسلت جمعيات، تعترف بها السلطات المحلية، متطوعين مدربين ومحترفين إلى الموقع لأمكن تجاوز كل هذه الصعوبات بسهولة. تبدو هذه الفكرة اليوم مسألة بديهية، ولكنها لم تبرز إلى حيز الوجود إلا بعد معركة سولفرينو.

نقل الجرحى من سولفرينو والقرى الأخرى إلى ميلانو قبل نقلهم إلى بيوتهم. ولتفادي قيظ النهار كان نقلهم يتم ليلاً. وهز مشاعر دونان منظرهم، وهم يحملون إلى القطارات.

وفي ميلانو، بعيداً عن ساحة المعركة، استقبل الجرحى كالأبطال. غير أن مستشفيات ميلانو كانت تعج بتسعة آلاف جريح خلفتهم معارك سابقة لموقعة سولفرينو. والآن صار يصل المدينة ليلة تلو الأخرى ألف جريح آخر أو أكثر.

وجاءت كل أسرة تملك عربة إلى المحطة لتأخذ نصيبها من الجرحى. رأى دونان بنفسه ما تعنيه عبارة «النصر في سولفرينو» فعلاً. وعقد

العزم على أن يُعرّف العالم بمغزى هذه العبارة الحقيقي، وأن يبذل كل ما في وسعه للحيلولة دون وقوع مثل هذه المذبحة في المستقبل، إذ لم يكن يريد لهذا الكابوس أن يتكرر.

كانت هذه المعركة أشبه بالجحيم. وعجز دونان عن نسيان صرخات الاحتضار والخوف التي سمعها... «لا تتركوني أموت!» «قليل من الماء، يرحمكم الله». لم يكن ليستطيع أن ينس الرجال الذين أمسكوا بيده وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة.

ومن ناحية، كان دونان بدوره، من ضحايا سولفرينو. أصبح بحاجة ماسة إلى بعض الصمت والهدوء، إلى الإختلاء بنفسه لترتيب أفكاره. فوجد الصمت المرتجى في الجبال المجاورة.

الإقامـــة في باريـس

ترك هذا الحدث أثراً لا يمحى في حياة دونان. كان عليه الآن أن يستأنف حياته الطبيعية وأن يواصل أعماله التي أهملها عندما اندلعت المعركة. توجه إلى باريس على أمل الالتقاء بشخصيات بارزة للحصول على المساعدة اللازمة من أجل أعماله.

كانت الأوساط الراقية، والرتب والألقاب تستهويه، ولكن ذكرياتُ سولفرينو ظلت تلاحقه طوال ثلاث سنوات. و لم يعد دونان يتحمل هؤلاء الرجال والنساء المهذبين غير المبالين سوى بمشاغلهم الخاصة. كان بوده أن يحطم لا مبالاتهم هذه وأن يدفعهم إلى مساعدته على عمل شيء من أجل جرحى الحرب.

وفي شهر كانون الثاني/يناير ١٨٦٠ استلم دونان أول مكافأة عن العمل الذي أنجزه في سولفرينو، وسام سانت موريس وسانت لازاروس في إيطاليا. غير أن ذلك لم يسهم في رفع معنوياته.

وعجز هدوء جنيف نفسها وجمالها عن محو مشاهد معركة سولفرينو من ذاكرته. فتبادر إلى ذهنه أن السبيل الوحيد لمعايشة ذكرياته هذه هو كتابتها.

«تذكـــار سولفرينـــو»

ما أن بدأ دونان سرد ذكرياته على الورق حتى أخذت الأفكار المتضاربة التي عصفت بذهنه وهو يعتني بالجرحى، تنتظم وتتوضح

حقيقة الحرب المريعة.
دُفن آلاف الجنود بسرعة في التلال المحيطة بسولفرينو. وبعد سنوات، نقل السكان المحليون رفات الجنود إلى هذه الكنسية لكي يحظى الجنود بمدفن يليق بهم.
(المصور: روجيه دوران).

شيئاً فشيئاً. بدا له وكأن الله قد انتقاه لكتابة ما شاهده من بشاعة. عاش دونان مع ذكرياته لوقت طويل. وفجأة أخذ كل ما رآه من أهوال والحماس الذي ملأه يتجسد على الورق.

«تذكار سولفرينو» هو الكتاب الذي سرد فيه بوضوح ودون مواربة كل الحقائق. فتحدث عن المذبحة وعن جهود الأطباء وشجاعة الجنود، عن العمل المضني والطيبة الهائلة لكافة الذين قدموا يد المساعدة، بين فقير وغني، للتخفيف من آلام الجرحى.

لم يكتف دونان بذلك، بل بين أن قسطاً كبيراً من هذه الآلام كان يمكن تفاديه بسهولة. توصل إلى استنتاج قاطع لا يقبل الشك وهو يسترجع كل هذه الذكريات الفضيعة. فأدرك فجأة أن ترك عملية الاعداد لمواجهة كارثة حتى تقع هذه الكارثة فعلاً لهو ضرب من الجنون المطلق.

وبدا له من المذهل أن لا يكون أحداً قد فكر من قبل في تنظيم المساعدة لجرحى المعارك.

يصعب اليوم خلال رحلة عبر حقول لومبارديا وبساتينها، أن نتخيل معاناة الجنود في ساحة المعركة حيث اصطبغت الجداول بلون الدم وتطلب جمع الجرحى أياماً، ودفن القتلى أسابيع.

(تصوير روجيه دوران).

لا شك في أن أشخاصاً آخرين، غير دونان قد فكروا في هذه الحاجة أيضاً. غير أن أحدهم لم يتمكن من التعبير عنها بمثل الحدة والوضوح والمثابرة التي ميزت تعبير دونان.

كتاب لتغيير العالم

في كتابه «تذكار سولفرينو»، طرح دونان سؤالاً حيوياً هو: «الا توجد وسيلة لتكوين لجان إغاثة خلال فترة السلام والهدوء تهدف إلى تقديم الرعاية للجرحى في زمن الحرب، بواسطة متطوعين متحمسين ومتفانين ومؤهلين لمثل هذا العمل؟».

ومضى يقول أنه كان بمقدور «فوج من المتطوعين المؤهلين المتحمسين الشجعان» أن يخففوا، بسهولة، من المعاناة في ساحة المعركة.

فما كان مطلوب هو رجال أشداء مدربون يجوبون ساحة المعركة بحثاً عن الجرحى لجمعهم قبل أن ينهكهم الجوع والعطش. فلو وُجد مثل هؤلاء الرجال لأمكن تفادي دفن الأحياء مع الموتى. ولأمكن أيضاً، بفضل سيارات إسعاف ملائمة، تخفيف عذاب الجرحى.

لو كان مثل هذا الفريق موجوداً لأمكن توصيل الرسائل إلى الجرحى ومسك سجلات دقيقة بأسمائهم وأسماء القتلى لكي يعرف أقاربهم ما جرى لهم. كما أن وجود مترجمين رسميين لكان سَهَّل العمل، مثلما كان سيسهله وجود المعدات اللازمة للمساعدة في الوقت الملائم وفي المكان المناسب.

وبالتالي لما خضعت المساعدة للمشاعر الآنية والحماس الآفل، ولما ترك الجرحى يواجهون مصيرهم الأليم لوحدهم.

كانت هذه النظرة جديدة، وقد طرحها دونان على العالم في الوقت المناسب.

دفع دونان نفقات نشر الطبعة الأولى من كتابه «تذكار سولفرينو» الذي صدر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٦٢. ولقي هذا الكتاب نجاحاً فورياً دهش له دونان نفسه. فسرعان ما نفدت كل النسخ وتناقلها الناس حتى قرأها الآلاف. فصدرت طبعة ثانية في شهر كانون الأول/ديسمبر.

أوتي دونان موهبة فذة. إذ كان باستطاعته أن يتكلم ويكتب بطريقة تشد مستمعيه وقرائه. فأوقد كتاب «تذكار سولفرينو» ناراً أهبت

«منذ أقدم العصور، والرجال والنساء يقدمون المساعدة للجرحى أو يوصون بذلك. غير أن أحداً لم يذهب إلى حد تجسيد الفكرة، أي إنشاء منظمة عالمية لهذه الغاية. والأمر الذي يجعل من دونان إحدى أكبر الشخصيات التي عرفتها البشرية، هو أنه نجح في تجسيد أفكاره الإنسانية النبيلة».

(رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، ١٩٥٣)

«في صفحات قلائل مريعة في واقعيتها، وصف دونان كل أهوال المذبحة الجماعية. فصدم هذا الوصف الأوساط الخيرية وهز أوروبا بأكملها».

أدولف بيكتيه
أديب

حماس الجماهير وحشدت جهودها.. وأدت إلى تأسيس الصليب الأحمر.

تلقى دونان رسائل من كبار شخصيات عصره ثناءً على إنجازاته، منهم الكاتب الفرنسي فيكتور هيوغو، ومهندس قناة السويس، فرديناند دي ليسبس، والأميرالات والماريشالات والمدراء والسياسيين.

هنري دونان في قمة مجده، عندما كان يختلط بالملوك وعلّية القوم في كل أنحاء أوروبا. كان مصمماً على الحصول على دعم لأفكاره الإنسانية على أعلى المستويات وقد استخدم كل طاقته وقدرته على الإقناع لكسب تأييد هذه الشخصيات ومساندتها.

وأرسلت فلورانس نايتنجيل بدورها، رسالة إلى دونان. فقد كان لكتابه أثر كبير في نفسها. ولكنها أبدت بعض التحفظات. ولفتت انتباهه إلى نقطة هامة كان لها وقعها على تطور الصليب الأحمر، وهي ضرورة إنشاء نظام يتسم بنفس القدر من الفاعلية سواء في وقت السلم أو في زمن الحرب. إذ كان دونان قد ركز جل اهتمامه على مساعدة الجرحى في زمن الحرب.

ولم يبخل ملوك أوروبا، الكثيرون آنذاك، بمدحهم وثنائهم على عمل هنري دونان.

حلم يتحول إلى واقع

أثارت فكرة دونان حماس الجميع. وكان قد آن الأوان لتحويل هذا الحلم إلى واقع عملي يمكن تطبيقه.

في أحد الأيام زاره محام اسمه غوستاف مونيه سبق لدونان أن التقى به في مناسبات عديدة. كان مونيه قد عمل كثيراً من أجل فقراء جنيف وشعر أن بمقدوره الآن أن يساعد دونان على تحقيق حلمه. وعلى الرغم من اختلاف طبيعة الرجلين تماماً، إذ كان مونيه رجلاً دقيقاً ومنظماً، فإنهما شكلا معاً فريقاً رائعاً.

عمل دونان مع مونيه، الذي كان رئيس جمعية جنيف الخيرية، على رسم الخطوط العريضة للمنظمة الجديدة. وقررا أن تتكون من جمعيات وطنية تستقطب العاملين في وقت السلم.

لم يكن مونيه يتمتع بحماس دونان ولكنه نجح في إقناع جمعية جنيف الخيرية بتوسيع أفقها ونطاق عملها.

واجتمعت الجمعية في التاسع من شهر شباط/فبراير ١٨٦٣. ولم يميز هذا الاجتماع عن الاجتماعات السابقة سوى بند كتب له أن يغير العالم. فقد طرحت فيه (كما ورد في «تذكار سولفرينو») فكرة إنشاء جمعيات دائمة للغوث، من أجل مساعدة الجنود الجرحى.

ومن ضمن الأشخاص الذين حضروا الاجتماع كان هناك الدكتور لويس أبيا الذي سبق وأن عمل على تطوير النقالات، كما كان قد سجل بدقة مهنية كل ما شاهده في سولفرينو. فكان هذا الجرّاح الذائع السيط هو الرجل الذي يلزمهم.

لجنـــة الخمســـة

تم اختيار أربعة من أعضاء الجمعية الخيرية لمساعدة دونان على تطبيق أفكاره، هم الدكتور آبيا والسيد غوستاف مونيه وجراح آخر كان له أثر بالغ في تطور المشروع هو الدكتور تيودور مونوار. أما الجنرال دوفور الذي اشتهر بإنسانيته الكبيرة والذي كان يحظى باحترام كبير في سويسرا فقد أعطى لأفكار دونان وزناً وجعلها تحظى بالقبول. أثبت هؤلاء الرجال تفانيهم من أجل المعوزين، وكانوا جميعاً من شخصيات جنيف المرموقة. وُعرفوا، مع هنري دونان، بلجنة الخمسة.

رأى دونان أنه من الضروري جذب شخصيات معروفة إلى فكرته. وكان فخوراً بتقدير رجالات عصره لعمله وتأييدهم له وشعر أن باستطاعته أن يلتمس مساعدتهم.

وفي محضر جلسة الاجتماع التاريخي للجنة، وردت أفكار شكلت أساس الصليب الأحمر. فقد اقترح فيه إرسال ممرضات متطوعات إلى ساحات المعارك فضلاً عن تحسين النقل والمستشفيات والعلاج. كما اقترح أن تكون اللجنة دائمة ودولية. وأعرب المجتمعون عن أملهم في أن يُسهّل نقل إمدادات الإغاثة بإلغاء الرسوم الجمركية.

في هذه الأثناء، سمع دونان بقصة العاملين الطبيين الذين قتلوا وهم ينقلون الجرحى من ساحة المعركة. والواقع أن هذه الحوادث كثيراً ما كانت تقع لإرتداء العاملين الطبيين زياً عسكرياً.

وتساءل دونان، شأنه شأن من سبقوه، عن كيفية تفادي مثل هذه الحوادث المؤلمة والمؤسفة. فكان أول من وجد حلاً لها.

ولكي تلقى أفكار اللجنة قبولاً ومجالاً للتطبيق كان لابد لها من محفل رسمي.

فقرر دونان وزملاؤه دعوة أخصائيين من مختلف البلدان للاجتماع في جنيف في شهر تشرين الأول/أكتوبر التالي. وشهد هذا الاجتماع مولد الصليب الأحمر.

ضمت لجنة الخمسة هنري دونان الذي كان مصدر الطاقة والحماس والقدرة على إقناع قادة أوروبا، وأربع شخصيات أخرى تمثل الاعتبار الاجتماعي وتوفر الدعم العملي الذي سمح لدونان بتجسيد حلمه. وكانت هذه الشخصيات الأربع قادة في مجالات مختلفة وعملت من قبل على تخفيف المعاناة، فضلاً عن تمتعها بمكانة مرموقة في جنيف.

جولـة في أوروبـا

قبل انعقاد هذا الاجتماع الحاسم في جنيف، قرر دونان أن يقوم بجولة عبر أوروبا أملاً في اجتذاب مزيد من الأنصار لقضيته. فتنقل من

بلد إلى آخر داعياً إليها. وعلى الرغم من صعوبة المهمة نجح في نقل حماسه إلى الآخرين. كما استطاع، بفضل ملكته في الحديث، أن يكسب أنصاراً كثيرين لقضيته.

وساقه حماسه إلى بعث رسالة وضح فيها أهداف اللجنة، دون أن يكلف نفسه عناء استشارة أعضاء اللجنة الآخرين.

وفي هذه الرسالة أوصى كل حكومة في أوروبا بمنح حمايتها ودعمها للجنتها الوطنية التي ستنشئها في كل عاصمة وتستقطب مواطنين محترمين لعضويتها.

كما أوصى دونان الحكومات بأن تسمح، في وقت الحرب، بإرسال المعدات والمواد الطبية للعاملين الطبيين إلى منطقة النزاع فضلاً عن التبرعات التي تجمعها جمعيات هذه البلدان من أجل مساعدة الجرحى.

وإلى جانب ذلك، طلب دونان من الحكومات، في رسالته هذه، أن تعتبر كل العاملين الطبيين العسكريين ومساعديهم، بمن فيهم

تختلف حدود أوروبا في هذه الخريطة اختلافاً كبيراً عن الحدود المعروفة لدينا اليوم. وكانت معركة سولفرينو وغيرها من المعارك التي نشبت أثناء حياة هنري دونان، معارك لاكتساب أراضٍ جديدة.

ويبين الخط الأحمر على هذه الخريطة جولة دونان في أوروبا.

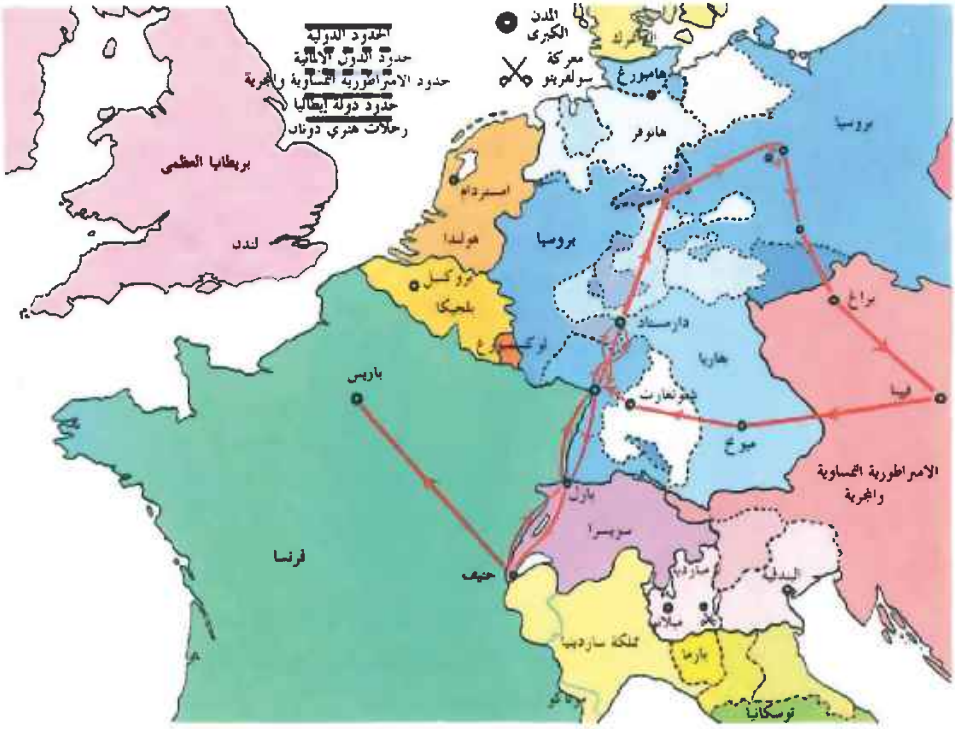

المتطوعين، محايدين وبالتالي غير مشاركين في المعارك.
وكان أول من اقترح ألا يرتدي العاملون الطبيون زياً عسكرياً، لتفادي إطلاق الرصاص عليهم. واقترح أن يرتدوا، عوضاً عن ذلك، زياً يحمل شارة تبين أنهم لا يشاركون في المعركة. قد تبدو هذه الفكرة في غاية البساطة ولكنها كانت فكرة في غاية الأهمية.
ومن غير أن يستشير أعضاء لجنته طرح دونان أهم اقتراحاته، ألا وهو الحياد، أي فكرة استقلال الأشخاص أو المجموعات عن طرفي النزاع في وقت الحرب. وشكلت هذه الفكرة أساس عمل الصليب الأحمر منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا.
وكسب دونان دعم بعض من أهم القادة الأوروبيين، ووعده بعضهم بإيفاد ممثلين رسميين لحضور اجتماع جنيف. وما يمكن قوله عن هذه الرحلة هو أنها حققت نجاحاً ساحقاً لم يكن لينجزه سوى دونان.

نشأة الصليب الأحمر

في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٨٦٣، كان كل شيء جاهزاً لعقد الاجتماع. وقد دهش دونان نفسه لعدد الحضور. فقد جمع الاجتماع ٣١ مندوباً يمثلون ١٦ حكومة.
اتسمت المناقشات بالحماس وتخللتها بعض الانتقادات. وكان بين المشاركين في الاجتماع مواطن إنجليزي غريب الأطوار يدعى توابينغ، رأى أن أنسب حل لوضع حد لآلام الجريح المصاب بجراح خطيرة جداً لا يرجى منها شفاءً، هي «قتله» بعد أن يكون قد سمح له بأداء صلاته «... حتى لا يفارق الحياة والحمى تعصف برأسه، والكفر على شفاهه». كان ذلك حلاً قاطعاً للمشكلة، ولكنه لم يحظ لحسن الحظ بأي تأييد.
وأظهر مونيه، كرئيس للاجتماع، مهارة في تسيير أعماله، وإن أبدى اعتراضاً على حياد الفرق الطبية. وعلى الرغم من معارضة مونيه، أصر دونان على فكرة الحياد. وأخيراً وافق المشاركون على إضفاء طابع الحياد على سيارات الإسعاف والمستشفيات والأطباء ومساعديهم والمدنيين المتطوعين لمساعدة الجرحى.
واعتمدت جميع البلدان شارة عالمية في شكل صليب أحمر على خلفية بيضاء، لسيارات الإسعاف والمستشفيات وبوجه خاص للعاملين

«يميل الكثير من الناس إلى نسيان حقيقة أن حركة الصليب الأحمر تدين بوجودها لجهود رجل واحد هو هنري دونان الذي استطاع بفضل قوة شخصيته فقط أن يقنع الأمم بإيفاد مندوبين إلى أول مؤتمر دولي في جنيف».

سمو الأميرة ماري،
أميرة بريطانيا، ١٩٥٣

الطبيين. وهنا أيضاً تبدو فكرة دونان في غاية البساطة. ولكن أحداً قبله لم يفكر في إيجاد حل لحماية المساعدين الطبيين من القتل في خضم المعركة.

كرّس اعتماد هذه المبادىء، بداية الصليب الأحمر الذي لم يفتأ ينمو ليصبح أكبر المنظمات الإنسانية في العالم.

وفي ذلك الوقت حقق الاجتماع في نظر الجميع نجاحاً ساحقاً وأشيد باقتراحاته، وبدا أن كل مبدأ طرحه دونان أخذ ينال اعتراف الجميع بجدواه.

دونان يسعى للحصول على مزيد من الدعم

في السنة التالية، شعر دونان بالقلق إزاء ما آلت إليه أعماله. وأدرك أن عليه أن يكرس لها وقته.

وفي الوقت نفسه كان يعلم تماماً مدى أهمية مواصلة حث الناس على دعم المبادىء التي أقرها اجتماع جنيف. وكان التوازن الكبير للجنة الخمسة على الرغم من تنوع طبيعة أعضائها ملفتاً للانتباه. فكان أعضاء اللجنة الأربعة الآخرين يؤيدون حلم دونان ويدعموه بروحهم العملية الواقعية. ولكنهم لم يحرزوا نفس نجاح دونان في إقناع رؤساء الدول بالتعاون وتقديم الدعم.

وفجأة أخذ انتباه دونان يتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية بالرغم من أراء زملائه المحافظة. فقد سره إعلان الرئيس لينكولن تحرير الرقيق في عام ١٨٦٣. وناشد دعمه للمؤتمر. فأبدى لينكولن تأييده لفكرة دونان ولكنه اعتذر عن الحضور لأسباب سياسية. غير أنه عين «مراقبين اثنين» في اللجنة مما شجع دونان، تشجيعاً بالغاً.

ويبدو أن زملاء دونان أخذوا يتضايقون منه شيئاً فشيئاً وأخذ حماسه يزعجهم. في وقت تدهورت فيه أعماله، فانعكس ذلك على معنوياته. وكتب رسالة لمونيه عرض فيها أن يستقيل من اللجنة، إذ شعر أن مهمته فيها قد انتهت. وجاء في الرسالة «لقد آن الأوان ليواصل أشخاص مؤهلون ترويج أهداف اللجنة والعمل على تطبيقها».

وبحكمته المعهودة كتب مونيه لدونان يخبره أن وجوده لا يزال حيوياً للقضية، إذ أنه صاحب الفكرة والشخص الذي يعرفه الجميع

ويحترمه. كما كان الشخص الوحيد في اللجنة القادر على حفز الدعم الدولي لمؤتمر اللجنة المقبل.

اتفاقيـــة جنيـــف

في الثامن من شهر آب/أغسطس ١٨٦٤ أوفدت ١٦ دولة ٢٤ مندوباً لحضور المؤتمر الدبلوماسي. كان هذا المؤتمر حدثاً لم يسبق له مثيل، إذا اجتمعت فيه أقوى بلدان العالم لاعتماد مجموعة من القواعد بشأن معاملة جرحى الحروب.

وفي الثاني والعشرين من شهر آب/أغسطس، وبعد مناقشات مستفيضة، وقعت ١٢ دولة على عشر مواد شكلت اتفاقية جنيف الأولى.

ونصت هذه الوثيقة الأساسية في تاريخ البشرية، على ضمان حياد سيارات الإسعاف والمستشفيات والعاملين الطبيين وأجهزتهم، والسكان المحليين الذين يساعدون الجرحى، وكذلك جنود الأعداء الجرحى، كما نصت على أن يقوم معتقلوهم بمعالجة جراحهم. وأوجبت على الجيوش أن تبحث عن الجرحى وتجمعهم. وأخيراً وليس آخراً، اعتمدت هذه الوثيقة الصليب الأحمر على أرضية بيضاء كرمز دولي للحماية والمساعدة المحايدة في أوقات الحرب.

واعتباراً من ذلك الوقت كانت الوثيقة جاهزة للحصول على الموافقة الرسمية للحكومات المعنية على هذه الوثيقة. وبإنتهاء السنة وافقت عشر حكومات على الوثيقة، وفي نهاية عام ١٨٦٧ ارتفع عددها إلى ٢١ حكومة.

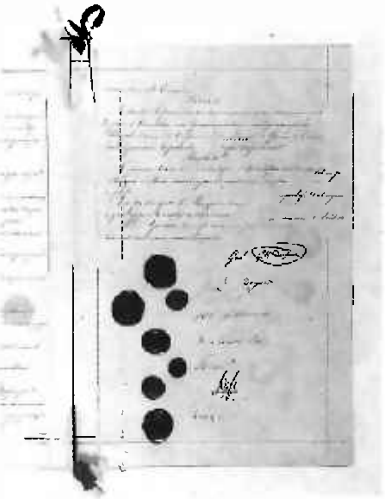

توقيعات واختام ١٢ دولة على أولى اتفاقيات جنيف في ٢٢ آب/أغسطس ١٨٦٤. غيرت هذه الوثيقة العالم بسبب طبيعتها الدائمة. وكانت أول معاهدة متعددة الأطراف تجمع بلداناً لغاية غير غاية التحالف ضد عدو مشترك؛ بل جمعت هذه المعاهدة دولاً في وقت السلم من أجل تفادي المعاناة في وقت الحرب. وعلى مرّ السنين، اقنعت اللجنة الدولية للصليب الأحمر، الحكومات باستكمال الاتفاقية وتنقيحها. وتوجد اليوم أربع اتفاقيات يعود تاريخها إلى عام ١٩٤٩. وما من اتفاقية أخرى وقع عليها مثل هذا العدد الكبير من الدول.

تدهور أعمال دونان

ما أن أنهى المؤتمر أعماله، حتى توجه دونان إلى باريس. وأمضى العامين التاليين محاولاً تحسين أعماله التي تضررت كثيراً من إهماله لها إذ كان تفكيره منصباً على عمله الإنساني. ولسوء الحظ لم يدرك دونان مدى خطورة المشاكل التي اعترضت أعماله.

وبعد رحلة إلى الجزائر حيث حاول أن يحصل على امتيازات، عاد إلى أوروبا ليجد حرباً جديدة محتدمة.

ففي الخامس عشر من شهر حزيران/يونيو ١٨٦٦ أُعلنت الحرب بين النمسا وبروسيا. وأصبح حلم دونان واقعاً بالنسبة للبروسيين الذين وقعوا على اتفاقية جنيف، وانشاؤا جمعية للغوث وخططوا بدقة لإجلاء الجرحى ومعالجتهم. في هذه الحرب فقد البروسيون ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل. أما النمساويون الذين لم يكونوا قد اتخذوا أي خطوات في هذا المجال فقد قتل بين صفوفهم ٢٥ ألف رجل. ظل الجرحى النمساويون ملقيين في الغابات والوهدان بعيداً عن الأنظار؛ ضاهت آلامهم آلام جرحى معركة سولفرينو. ولم يعثر على بعضهم إلا بعد مرور يومين. وفي أحد المواقع اكتشف بعض المتطوعين ثلاث مائة رجل راقدين بين ثمانمائة من زملائهم الذين لقوا نحبهم بسبب الإهمال. ولم تكن بحوزة المتطوعين أي ضمادات أو أربطة أو بطاطين. وراح العديد من الجرحى ضحية تسمم الدم مثلهم مثل ضحايا حرب عام ١٨٥٩. وبالنسبة للنمساويين لم يكن شيئاً قد تغير.

تحدث المنتصرون عن بطولة جنودهم ووطنيتهم وحمدوا الله على النصر. أما دونان فقد هالته الإحصائيات.

بعد إنتهاء الحرب، أقيمت في بروسيا احتفالات النصر. واستقبل دونان كضيف شرف فشارك البروسيون فرحهم ومجدهم؛ وحملته الموسيقى على أجنحة نغماتها، ورفرفت الرايات بما فيها راية الصليب الأحمر. ثم مثل دونان بين يدي ملك بروسيا الذي صرح له: «عندما حضرتم إلى برلين عام ١٨٦٣، كنا أول من أبدى اهتماماً بعملكم وأول من شجعه، بين أمراء أوروبا. ولم نتصور آنذاك أننا سنحتاج بهذه السرعة، إلى خدمات المنظمة التي أسستموها. لقد أجبرنا أعداءنا على خوض الحرب. واليوم وقعت كل الدول على اتفاقية جنيف وكانت النمسا آخر من وقع عليها. لقد تأخرت في اتخاذ الخطوات اللازمة فتركت جرحاها لرعايتنا وقدمنا لهم العناية اللازمة حتى أنهم لقوا عناية أفضل من العناية التي لقيها جنودنا نفسهم». كان لهذه الكلمات وقعاً كبيراً في نفس دونان. ولم يكن يصدق أن أفكاره التي طبقها جزئياً في سولفرينو، قد انقذت بهذه السرعة آلاف الأشخاص.

شارة الذراع التي استخدمها الدكتور لوي آبيا للمرة الأولى في الحرب البروسية-الدانمركية. واعتباراً من ذلك الوقت حمى هذا الرمز البسيط الأطباء والممرضات وكافة المساعدين الطبيين في أوقات الحرب.

الكارثـــــــة!

في الوقت الذي لقي فيه الصليب الأحمر نجاحاً متزايداً، كانت أعمال دونان في تدهور مستمر. وفي عام ١٨٦٧ عندما بلغ نجاحه الدولي ذروته، أفلست أعماله فحُجز على أمواله، وبيته وممتلكاته في سويسرا وفي بلدان أخرى، بالإضافة إلى قسط كبير من ثروة أسرته، لتسديد ديونه.

وكان لبعض مديري أعماله مسؤولية لا تنكر فيما آلت إليه أعماله. غير أن دونان لم يكن حاضراً للرد على متهميه فألقيت عليه مسؤولية أفلاسه بالكامل.

وأعلنت المحكمة المدنية مسؤوليته الكاملة في إفلاس مشروعه واتهمته بالتضليل؛ ثم نشر الحكم الذي أصدرته المحكمة في كل صحف جنيف.

ولا شك في أن انصرافه الكامل إلى قضية الصليب الأحمر كان سبباً أساسياً في الكارثة المالية التي حلت به. ولكن هل كانت الإدارة السيئة لأعماله إخلالاً متعمداً بمسؤولياته تجاه الآخرين أم كانت نتيجة لإهماله فحسب؟ سيظل هذا السؤال دون جواب.

في سن التاسعة والثلاثين، أي بعد معركة سولفرينو بثماني سنوات، خسر دونان كل شيء. فقدَ مركزه كمواطن محترم في مجتمع جنيف ووجهت نحوه أصابع الاتهام بالإفلاس والاحتيال، والأدهى في كل ذلك هو إنه فقد منصبه في الصليب الأحمر في جنيف.

بلغ عجزه المالي حوالي مليون فرنك سويسري. وهو مبلغ هائل في تلك الأيام.

وفي ذلك العهد كان الإفلاس في جنيف، يجلب على صاحبه العار. والأنكى من ذلك أن أسرته نفسها وأصدقاءه شعروا أنه قد خانهم شخصياً. ولم يسامحه الكثيرون على ذلك أبداً. وأخذ دونان على نفسه عهداً بأن يعمل لتسديد ديونه وغسل العار الذي حل به. غير أن هذه الكارثة حطمت حياته ولم يسترجع، في السنوات الثلاثين التالية، اعتباره الماضي. وغادر وهو يجر إذيال الخيبة والعار.

«رأى دونان أن الحرب تزيد الفقراء فقراً بسبب ما تستوعبه الميزانيات العسكرية من أموال، وإنها تجرح الشبـــان وتجلب العـــذاب والنشوهات. كانت الحرب بالنسبة له بمثابة مجرم يقضي في دقائق معدودات على الجهود التي بذلها أب وأم على مدى عشرين عاماً. وأخيراً شعر بأن الحرب تفسد عقول البشر وأخلاقهم إذ أنها تستبدل القيم المسيحية بقانون العنف والرعب».

روجيه دوران،
كاتب سيرة هنري دونان

بلغت معاناة دونان أشدها في شقته المتواضعة في باريس، بعيداً عن بيته ودون مساندة أسرته. هو الذي كان يفتخر باسم أسرته وبوضعه الاجتماعي، وبأصدقائه الأثرياء ذوي النفوذ.

وفي صيف عام ١٨٦٧ أقام نابليون الثالث معرضاً عالمياً في باريس، فاغتنم الصليب الأحمر الفرصة لإنشاء جناح له في المعرض توسطه تمثال مؤسسه متوجاً بإكليل الغار. فشعر دونان بإهانة كبيرة إزاء هذا التعارض بين شهرته وفقدان حظوته، وطلب إلى شخص أن يرفع التمثال من محله. أما تمثال السيد كروب، صانع الأسلحة الشهير، الذي وضع على بعد خطوات من تمثال دونان فظل في محله مستقطباً كل الأنظار.

استلم كروب الجائزة الكبرى على المدفع الذي اخترعه، في حين أهديت لدونان، مونيه ودوفور أوسمه ذهبية على خدماتهم الإنسانية ويبدو أن أحداً لم يلاحظ هذا التناقض الصارخ.

ومع كل ذلك أخذ أمل دونان يتزايد تدريجياً، وبدأ يفكر في خطة لتسديد ديونه. وكانت كل جائزة يتلقاها تسهم أيضاً في رفع معنوياته ولو قليلاً. كما عينته جمعيات الصليب الأحمر في بلدان عديدة نائباً لرئيسها. وكثيراً ما كان الصليب الأحمر يثني عليه في اجتماعاته الوطنية.

وفي شهر تموز/يوليو طلبت الأمبراطورة أوجينيه زوجة نابليون الثالث، إلى هنري دونان أن يمثل بين يديها. فقد شعرت بالإحباط بعد أن سمعت بموت ما يزيد على ألف رجل في معركة بحرية على ساحل إيطاليا بسبب نقص الرعاية. وطلبت من دونان أن يفعل شيئاً. فأخبرها بأسى أنه لم يعد له صوت مسموع في أوساط الإغاثة، ولكن الأمبراطورة لم تصدقه إذ كانت متأكدة من أنه هو الإنسان الوحيد القادر على عمل شيء إزاء الوضع، بل وأن من واجبه أن يقوم بذلك. وعدها بأن يبذل قصارى جهده وهو يعلم علم اليقين أنه لم يعد لكلمته تأثيراً كبيراً في الصليب الأحمر. فقد كان الكثير من المواطنين السويسريين قد أولوه ثقتهم وساندوا عمله؛ غير أن العديد منهم قد خسر أمواله أيضاً بسببه. وفي القرن التاسع عشر كان الإفلاس في جنيف يعتبر جريمة لا تُغتفر، وإن كان هذا الإفلاس قد نتج، في حالة هنري دونان، عن اهتمامه بالعمل الإنساني.

كان مبدأ حياد سيارات الإسعاف قد أصبح مبدأ مقبولاً لدى الجيوش: غير أنه لم يكن مطبقاً في البحار. وفي معركة ليسا التي وقعت في شهر تموز/يوليو عام ١٨٦٦، قضى ألف جندي نحبهم في سفينة واحدة فقط نظراً لعدم وجود سفن محايدة تعمل عمل المستشفيات. وبذل دونان كل ما في وسعه ليشمل مبدأ الحياد المعارك البحرية أيضاً، إلا أن هذا الهدف لم يتحقق حتى التوقيع على اتفاقية لاهاي عام ١٨٨٩.

في باريس، عانى دونان من شظف العيش. كانت أمه تواسيه في رسائلها وأرسلت له معطفاً ليقيه برد الشتاء. ولم يمض وقت طويل حتى توفيت والدته فتأثر دونان لذلك تأثراً بالغاً وزاد من كربه تلاشي كل آماله في تحسّن أعماله. ومع كل ذلك لم يترك دونان فرصة إلا وتحدث عن الصليب الأحمر وأهدافه المقبلة ونجح في كسب الكثيرين إلى قضيته. كانت جنيف قد نبذته، غير أن باريس وأوروبا كانت لا تزال تنظر إليه على أنه قائد حركة الصليب الأحمر دون منازع.

ونجح هنري دونان في إدراج مسألة الحياد في البحار في جدول أعمال أول اجتماع دولي للصليب الأحمر عقد في باريس في آب/أغسطس. تبنت الأمبراطورة أوجينيه هذه القضية فأولتها كل اهتمامها ودعمها. ودافعت بإيمان وقوة عن أهمية إنقاذ البحارة واقترحت أن تنشيء سفن تقوم عمل المستشفيات وتحظى بنفس الحماية التي تتمتع بها المستشفيات في البر.

نالت هذه الفكرة تأييداً واقترح إضافتها إلى اتفاقية عام ١٨٦٤ في شكل مشروع بند. غير أنها لم تحصل على المساندة اللازمة وبالتالي لم تعتمد إلا بعد انعقاد مؤتمر لاهاي في عام ١٨٩٩.

ومن ناحية أخرى، كرّس دونان جهوده لإنشاء مكتبة عالمية، ودعا إلى تعاون المسيحيين واليهود لإعادة بناء هيكل القدس. وفي الوقت نفسه كانت مسألة العبودية تشغل باله كثيراً؛ كما واصل العمل من أجل تحسين ظروف السجناء. كانت معظم أفكاره سابقة لعهده، لكن كتب لها أن تتحول إلى واقع ملموس.

حـــرب أخـــرى

في عام ١٨٧٠ أعلنت فرنسا الحرب على بروسيا. وكانت خسائر الجانبين مريعة، إذ راح ضحية هذه الحرب مائة ألف جندي. وبفضل خدمات جمعية الصليب الأحمر البروسي الحسنة التنظيم، نقل جرحى الجيش البروسي سريعاً إلى المستشفيات. أما الجرحى الفرنسيون فلم يكن مصيرهم بأفضل من مصير ضحايا معركة سولفرينو قبل ذلك بأحد عشر عاماً. وأخيراً، في الثاني من شهر أيلول/سبتمبر تلاحم الجيشان في معركة سيدان الحاسمة وقرر نابليون الثالث على أثرها أن يتراجع بدلاً من أن يضحي بالمزيد من جنوده.

في عام ١٨٧٠ طرأت تطورات مقلقة على أسلحة الجيوش، إذ أصبح لديها مدافع يبلغ مداها ١٥٠٠ متر. وشهد دونان تطور هذه الأسلحة بجزع. وحذر، متنبئاً كعادته، من أن استخدام الإنسان للعلم لتصنيع وسائل تدمير أكثر تطوراً سيجره إلى هاوية كوارث أليمة لن ينقذه منها سوى معجزة الاهية.

إلى الأعلى: بعد مرور عامين على توقيع اتفاقية جنيف حقق الصليب الأحمر قدراً كبيراً من التنظيم في بلدان عديدة.

إلى اليسار: قطار مصمم خصيصاً لاستقبال الجرحى. في معركة سولفرينو وكل المعارك التي سبقتها كان جرحى الحرب ينقلون في عربات أو قطارات عادية. وبحلول عام ١٨٧١ شاع استخدام سيارات الإسعاف المجهزة والقطارات الطبية الخاصة لنقل الجرحى.

عربة إسعاف أثناء الحرب بين فرنسا وبروسيا. كانت جمعيات الصليب الأحمر للغوث في أوروبا تصمم أجهزة وتدرب المتطوعين في أوقات السلم استعداداً لتقديم المساعدة الإنسانية وقت الحرب. وعندما اندلعت الحرب بين فرنسا وبروسيا في ١٨٧٠ و١٨٧١، استطاعت جمعيات البلدان التي لم تشارك في الحرب، ومنها بريطانيا وهولندا، أن ترسل متطوعين مدربين لتقديم المساعدة.

حصـــار باريـــس

في تلك الأثناء تم تشكيل حكومة جديدة في باريس رفضت أن تستسلم، فقررت القوات البروسية محاصرة باريس. فإذا بدونان يجد نفسه محاصراً مع كل سكان المدينة.

وللمرة الثانية وجد دونان نفسه في قلب حرب لم تكن حربه. ومن جديد كرس نفسه لمساعدة الجرحى. ولكنه لم يكن وحيداً هذه المرة إذ كانت فرق صغيرة للصليب الأحمر تعمل بهمة في كل أرجاء العاصمة مطبقة أفكار دونان في خضم الفوضى السائدة.

كان رمز الصليب الأحمر قد أصبح معروفاً للجميع. واخترق رجل إنجليزي خطوط الجيش البروسي حاملاً نصف مليون فرنك لمساعدة الجرحى الفرنسيين تحت راية الصليب الأحمر، فأدهشه احترام الجميع لهذا الرمز سواء كانوا مدنيين أو عسكريين.

ظلت باريس محاصرة طوال أربعة أشهر، كانت القذائف، خلالها تمطر على العاصمة. و لم يكن أمام السكان إلا أن يأكلوا الخيول والجرذان والقطط والكلاب. وبحلول شهر كانون الأول/ديسمبر اشتد البرد، فلم ينقطع دونان عن البحث عن ملابس شتوية وضمادات للجرحى.

وفي شهر كانون الثاني/يناير ١٨٧١ تم توقيع الهدنة. وسرعان ما توجه المسؤولون الفرنسيون إلى دونان ملتمسين منه المساعدة. فطلبوا إليه

إلى الأسفل: أثناء حصار باريس عام ١٨٧٠، تضور سكان المدينة جوعاً، فلجأ، العديد منهم إلى المنطاد الذي كان قد تم تصميمه مؤخراً، للفرار من المدينة.

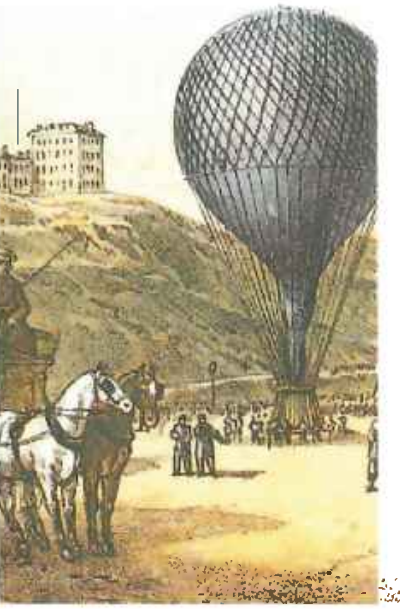

أن يحاول إنقاذ أسيرين من أنصار الفرنسيين اعتقلهما البروسيون. كان الرجلان جريحين وكان من المقرر إعدامهما حال شفائهما. غادر دونان باريس متوجهاً إلى فيرساي حيث انشأت القيادة العليا للقوات البروسية مقرها. وفي طريقه استوقف مرات عديدة وخضع للتحقيق والاستجواب. ولدى وصوله أقتيد إلى قائد القوات المسلحة، فإذا بقدرة دونان على الإقناع تنجح من جديد، فأطلق سراح الرجلين فوراً.

الحرب الأهلية-حكومة ثورية في باريس

كان الألمان قد رفعوا الحصار، واستعادت باريس حريتها. غير أن الفقر والبؤس لم يختفيا. فإذا بشرارة الثورة تشتعل وتُشكل حكومة ثورية في الثامن عشر من شهر آذار/مارس ١٨٧١.

ذهب دونان، بشجاعته المعهودة، إلى مقر الثوار ليطلب منهم احترام اتفاقية جنيف. وعاملهم كرجال محترمين فعاملوه بدورهم كمواطن هام، ووعدوه باحترام شارة الصليب الأحمر.

ولكن السلم الهش انهار عندما أطلق حارس مشاغب، النار على جرّاح لم يتخذ الحيطة اللازمة فسار في الشوارع دون أن يحمل شارة الصليب الأحمر، علامة الحياد.

على أثر هذا الحادث هجم عشرة آلاف جندي من جنود الحكومة على المدينة وقتلوا كل من أسروهم مباشرة. ما أن علم سكان باريس بذلك حتى ثارت ثائرتهم واستحوذت عليهم روح الانتقام واستعر القتال الوحشي. فكان الرجال الذين يستسلمون يقتلون بلا رحمة كما القي القبض على القسسة.

في هذه الفوضى ظل دونان محتفظاً برباطة جأشه، وبذل قصارى جهده لبلوغ الأشخاص الذين كان يؤمن باتزانهم وحكمتهم وتوسل إليهم ليضمنوا حماية الجرحى والأسرى. وراعه أن يرى استخفافهم ولا مبالاتهم بتوسلاته. كان كل همهم منصب على الانتقام من أعدائهم.

أبدى هذا الرجل شجاعة نادرة، في حين لم يكن يميزه عن انداده، شيء في الأحوال العادية. أسر الثوار قساً طيباً لا حول له ولا قوة يعمل على حماية الأطفال في باريس، وذلك لمجرد أنه كان يرتدي زي القسسة. وكان هذا الزي في نظرهم استفزازاً يبرر قتله. وقف دونان بينه وبينهم ونجح في إنقاذ الرجل المسكين من قبضتهم.

ألحق حصار باريس في ١٨٧٠ الحرب الأهلية والدمار بالعاصمة. وتحولت بعض المباني الهامة إلى انقاض بسبب القصف المتواصل. وتواجه المقاتلون بوحشية. في تلك الأثناء كانت فرق الصليب الأحمر تعمل دون هوادة لتوفير المساعدة الطبية والغذاء للمجائعين. ومن جديد كرس دونان كل طاقاته لتنظيم المساعدات.

حكـــم الغوغـــاء

في الرابع والعشرين من شهر أيار/مايو تجسدت أسوء مخاوف دونان، سيطر الجنون والتعطش للدماء على سكان باريس، تقاتل المعسكران المتعاديان دون تمييز وبوحشية كما حدث في فترة الرعب التي شهدتها الثورة الفرنسية. خيم الإرهاب على المدينة. فكان الناس يُقتلون لأتفه الأسباب. كان يلقى القبض على القساوسة، ورجال الشرطة والمدنيين الأبرياء ثم يعدمون.

وفي يوم الأحد الموافق ٢٨ من ذلك الشهر، وبعد سبعة أيام من الرعب أطلق عليها اسم «أسبوع الجحيم» سقطت آخر المتاريس أمام القوات الحكومية. وأصدر القادة الفرنسيون قراراً بمعاملة الأسرى برفق ورحمة... ومع ذلك ذبحوا بالآلاف.

صعق دونان من هول الصدمة. وتساءل عما كان بمقدور الصليب الأحمر أن يفعله إزاء مثل هذه الوحشية؟

ما بعد حكومة باريس الثورية

ما أن وضعت الحرب أوزارها حتى بدأت السلطات تعمل على إعادة الأمور إلى نصابها. غير أن من عاش مثل هذه الظروف المريعة لا يمكن أن يعود أبداً مثلما كان. ودونان كان ممن عاشوا هذه الظروف. لم يكن يتصور، بعد تجربة سولفرينو، أنه سيمر بنفس هذه الأهوال ثانية. ولكن الحرب الأهلية بدت له، من بعض النواحي أمرّ وأدهى من سولفرينو بكثير.

كان إفلاس دونان، ونبذه وفقدانه لبيته وثروته وأصدقائه، احداثاً تركت في نفسه جراحاً لا تندمل. وإذا بهذا الرجل المرهف الحس يتلقى صدمة أخرى مع حصار باريس الوحشي ومع أهوال احداث حكومة باريس الثورية.

بلغ دونان من العمر في ذلك الحين ثلاثاً وأربعين عاماً، ولم تكن روح الكفاح قد خبت بعد، فهو لا يزال يدافع عن قضايا نبيلة ويجاهد في سبيل تحقيقها. والقى محاضرات عن السلم ومكافحة الرق، وعمل من أجل السجناء وأسرى الحرب. ولكنه لم يعد سوى شبح دونان في سابق عهده.

ومع مجموعة من الأصدقاء، انشأ دونان الاتحاد العالمي لنظام الحضارة، الذي كان بمثابة السابقة للأمم المتحدة. وكانت هذه

اضرمت الغوغاء النار، ونهبت وقتلت. كانت المذبحة أثناء حكومة باريس الثورية مماثلة لما حدث خلال الثورة الفرنسية. وفي تلك الظروف المؤلمة أبدى دونان شجاعة نادرة وبسالة لا نظير لها في مواجهة الدهماء، حتى أنه وقف ذات مرة أمام سرية إعدام لإنقاذ حياة رجل.

المجموعة مقتنعة بأن تضميد الجراح التي تخلفها الحرب ليس كافياً وأن عليها أن تكافح من أجل الحيلولة دون وقوعها. ومن جديد نرى هذا الرجل الذي تميز ببعد النظر يطرح مفهوماً لم يتحقق إلا بعد مرور عشرات السنوات.

في باريس رأى دونان العدد الكبير من أسرى الحرب المعذبين. إذ لم يعد الجنود يقتلون حال أسرهم ولكنهم لم يتلقوا العناية اللازمة. وأعتبر هذا الوضع أمراً مألوفاً شأنه شأن ضحايا الحروب السابقة. عقد دونان العزم على تغيير هذه الأوضاع. والواقع أن الصليب الأحمر كان قد بدأ يعمل أيضاً من أجل أسرى الحرب وإن لم تكن اتفاقية جنيف تشملهم بحمايتها. فأراد دونان أن يذهب إلى أبعد من ذلك ووضع ميثاقاً وردت فيه خمسة مطالب:

«حصول الأسير على اللوازم الأساسية لراحته؛ تيسير اتصاله بأسرته وأصدقائه، توفير سبل الراحة له لدى ذهابه إلى المعسكر أو لدى عودته إلى وطنه؛ دفن الأسير المتوفي بشكل ملائم وإحاطة أسرته علماً بوفاته؛ وتشجيع المشاعر الطيبة بين الأسير والسكان الذين قاتل ضدهم».

نوقشت هذه المسألة في مؤتمر الاتحاد العالمي في شهر حزيران/يونيو عام ١٨٧٢؛ ولكن على الرغم من إنشاء لجنة لهذا الغرض لم يعد دونان يتمتع بالصحة والجاه اللازمين للتجوال في أوروبا كما فعل في الماضي من أجل عرض قضيته على ذوي النفوذ و لم تطرح مسألة حماية أسرى الحرب إلا في مؤتمر لاهاي عام ١٩٠٧. ولحسن الحظ، عاش دونان ليرى ذلك. لكن حياته لم تمتد ليرى اتفاقية جنيف لعام ١٩٢٩ التي اعتمدت أخيراً الأفكار التي كافح هنري دونان من أجلها طوال خمسين سنة من حياته.

«يجب أن تكون القضية التي نسعى إلى تحقيقها دولية، إذ أنها تخص البشرية جمعاء، إنها قضية يجب أن يتبناها كل إنسان نيابة عن أخيه الإنسان».

سنـــوات العُـــزلة

يبدو أن دونان لم يكن يباشر عملاً إلا وكان مآله الفشل المحتوم. فكانت أفكاره لا تزال سابقة لعصره. وصحيح أن معظم هذه الأفكار قد تحققت فيما بعد، إلا أنها تحققت على أيدي غيره.

وعلى مدى ستة عشر عاماً عاش دونان فقيراً متنقلاً من باريس إلى لندن وعائداً إلى باريس ثانية، ومن بعد إلى ستوتغارد وإلى جزيرة وايت وتريستا وقرطبة ومختلف المدن الألمانية.

عانى من مرض جلدي صعّب عليه الكتابة إلى حد كبير. وتفيد المعلومات النادرة المتوفرة عن حياته خلال هذه الفترة القاتمة بأنه كان يرتاب من الجميع وبلغت حساسيته أشدها. لم يكن يملك شروى نقير، وكل ما يمكن أن يقال عن حياته هو أنها كانت مأساوية حتى أن أغلب الناس في أوروبا اعتقدوا أنه توفي، ولكنهم كانوا في الواقع قد نسوه تماماً.

أثرت الفترة التي قضاها مبعداً عن المجتمع ليس على صحته فحسب بل على معنوياته أيضاً أشد التأثير. وبدت له سنوات سولفرينو المفعمة بالطاقة والأمل بعيدة أشد البعد بعد أن سيطر البؤس وخيبة الأمل على نصف حياته. كان يتطلع إلى استعادة كرامته واحترامه لنفسه. غير أن سنوات الجوع والبؤس والوحدة والافتقار إلى عمل مجدي حملته على الرثاء على نفسه وملأته خيبة ومرارة.

كان عزاؤه الوحيد هو الاعتراف المتزايد بالصليب الأحمر وازدهاره المطرد، إذ انقذت أفكاره آلاف البشر.

وتعاقبت البلدان في إنشاء فرق الصليب الأحمر التي كانت تقضي سنوات السلم في الاستعداد لمساعدة الجرحى في أوقات الحرب. وفي تلك الأثناء كانت الضمادات تُجمع والمتطوعون يُدربون وسيارات الإسعاف تُصمم.

وفي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر نشبت عدة حروب تشكلت على أثرها بلدان أوروبا في حدودها الحالية. وفي هذه الحروب أصبحت راية الصليب الأحمر رمزاً معروفاً، وكانت فرق الممرضات المهنيات ترافق كل جيش، بالنقالات والضمادات والإمدادات الطبية اللازمة لمعالجة الجرحى. وبالتالي لم يعد الجندي يترك لمصيره المحتوم في ساحة المعركة.

وفي عام ١٨٧٦ اعتمدت تركيا رمز الهلال الأحمر بدلاً من الصليب الأحمر كرمز للإغاثة. فانتشر رمز الهلال الأحمر بعد ذلك إلى البلدان الإسلامية. وبحلول عام ١٨٨٨ كانت ٣٥ دولة قد أنشأت جمعية للصليب الأحمر أو الهلال الأحمر.

والأهم من كل ذلك هو أن أحكام اتفاقية جنيف أخذت تطبق. كانت أول اتفاقية دولية في تاريخ القانون الدولي الإنساني تكتسب رويداً رويداً طابعاً دائماً. ووقعت الدول على الاتفاقية، الواحدة تلو الأخرى. وبفضل مونيه وزملائه في جنيف أخذت فكرة دونان تتجسد.

سيدات المجتمع الألمانيات تعددن الضمادات والبطاطين أثناء الحرب بين فرنسا وبروسيا. في تلك الأيام كانت أفكار دونان تثير الحماس. وبالنسبة للمجتمع الدولي كانت قوة الصليب الأحمر تكمن، بالتحديد، في قدرته على حفز الروح الإنسانية بسرعة وفاعلية أكسبته شهرة في العالم أجمع.

هايدن-العودة إلى سويسرا

في شهر تموز/يوليو ١٨٨٧، قام دونان برحلة العودة إلى هايدن، في شرق سويسرا وقد بلغ من العمر آنذاك ٥٩ عاماً. وفي جبال هايدن وهوائها النقي وعلى ضفاف بحيرتها المضيئة استعاد ذكرى جمال طفولته وهنائها. وأخبر الناس بفخر أنه مؤسس الصليب الأحمر ومروج اتفاقيات جنيف. كان بحاجة إلى تعريف الناس بدوره، وإلى الشعور بأنه ليس مجرد رجل مريض ومسن.

كانت هايدن المكان الذي يلزمه. إذ ظلت كل علاقاته مع الناس مشروطة لفترة طويلة بالقضايا التي كان يدافع عنها، بل أن الجرحى والأسرى أنفسهم كانوا قد أضحوا، مع مرور الوقت، مجرد عناصر إحصائية. أما الآن فقد عاد إلى الاختلاط بالناس البسطاء الذين لا نفوذ لهم، فاستقبلوه بينهم بسرور ورحابة صدر. وتحوّل دونان تدريجياً من رجل مثالي إلى رجل عادي. وفوجيء بإقبال الأطفال عليه وكان يجد لذة بالغة في مداعبتهم والتحدث إليهم.

استعاد دونان خلال السنوات الخمس التي أمضاها بين سكان قرية هايدن بعضاً من سعادته، غير أن سنوات الكفاح الطويلة والمعاناة تركت في نفسه بصماتها التي لا تمحى. كان يرى، في قرارة نفسه، إنه ضحية غبن بالغ وأنه ظُلم دون وجه حق وبالتالي أصبح في غاية الحساسية وكان سلوك الناس يجرحه بسهولة حتى عندما كانوا يحاولون مساعدته. وكعادته واصل الكتابة عن وحشية البشر وعرض آرائه بشأن ما يجب عمله.

تدهورت صحته، فرأى طبيبه أن من المستحسن نقله إلى المستشفى. وفي المستشفى خصص له مكتب صغير يطل على البحيرة وغرفة. وفي عام ١٨٩٢، وقد بلغ من العمر أربعاً وستين عاماً، انتقل إلى المستشفى بمتاعه المحدود وامضى فيه السنوات الثمان عشرة الأخيرة من عمره.

الشهـــرة

عاش دونان في هايدن في عزلة شبه كاملة. أمضى بعض أوقاته في كتابة الرسائل إلى معارف قديمة على أمل الحصول على اعتراف بأعماله. فاجابه البعض من باب الأدب إذ لم يعد لدونان مكانة. وكان سيظل منسياً لولا قدوم صحفي شاب إلى المنطقة عام ١٨٩٥.

«إن عدونا، عدونا الحقيقي، ليس أي بلد مجاور، بل هو الجوع والبرد والفقـر والجهـل والعـادات والخرافات والخزعبلات والتحيز. فبدلا من التعاضد لمكافحة الفقر والجهل، نرى الإنسان يتنافس مع أخيه الإنسان في تعصبه القومي الأعمى وفي سفك الدماء بوحشية قاتلة... أما في وقت السلم فهو يجتهد من أجل استخدام التطورات العلمية لأغراض هدامة».

هنري دونان

كان هذا الصحفي قد علم، من خلال تجاذب أطراف الحديث مع الناس، بوجود رجل مسن، يعيش في مستشفى هايدن هو مؤسس الصليب الأحمر. رأى الصحفي في ذلك فرصة لتحرير مقال شيق فكتب إلى دونان يطلب مقابلته.

بالنسبة لدونان، مثلت هذه الدعوة فرصة نادرة لترويج أفكاره من جديد، وسرّه أن يقابل السيد بومبيرجي، الصحفي الذي عامل دونان باحترام كبير. وبعد أن تأكد دونان من اهتمام الصحفي الفعلي أخذ يقص عليه سيرة حياته العجيبة.

اثار هذا الموضوع بومبيرجي ايما إثارة. فقد وجد بين يديه مادة نادرة لتحرير مقالة رائعة-تتحدث عن ملوك ومعارك ومفاوضات وخطط ومعاناة وشجاعة. وبالإضافة إلى ذلك زوده دونان بقصاصات الصحف ومخطوطات وكأنه يريد أن يفصح بالحقيقة كلها عن طريق هذا الشاب.

كان قد مضى على صدور «تذكار سولفرينو» ما يزيد على ثلاثين عاماً، إلا أن الجمهور تذكر دونان. وأثارت المقالة التي نشرها بومبيرجي عنه رد فعل كاسح، فإذا بالرسائل تنهال عليه ويأتي الأصدقاء والمعارف لزيارته. حتى المال أخذ يصله، ففضل دونان، الذي كان قد اعتاد الخوف من الفقر، أن يضع هذا المال في المصرف تحسباً للأيام العصيبة.

كان مذهولاً لما يحدث. ويبدو أن نابليون الثالث نفسه كان قد عرض، قبل سنوات، أن يدفع نصف ديون دونان لو دفع أصدقاؤه النصف الآخر. غير أن الرسالة التي كانت ستعطي دونان فرصة جديدة فُقدت. فرأى البعض يد الشر وراء هذا الحادث. إذ كانت هناك فعلاً شخصيات ذات نفوذ لم تكن تريد أن يرجع دونان إلى مسرح الأحداث.

فإذا بجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر في العالم أجمع تكرمه ويرى دونان تحولاً هائلاً في حياته كلها: الاعتراف المفاجيء به والمال الذي يصله أيضاً، المعاشات والجوائز والمكافأة التي تصله من كل حدب وصوب.

بدا وكأن الحياة تغمره من جديد بفضل كل هذا الثناء المنعش. فعاد إلى الكتابة وإلى رسم مشاريع جديدة.

كتب نداءً من أجل السلم، ندد فيه باستخدام روائع الاختراعات الحديثة لغايات الحرب، وشجب الإعجاب الذي يحظي به مخترعو

إحدى الغرفتين المتواضعتين في مستشفى هايدن حيث أمضى دونان السنوات الأخيرة من حياته، وظل يكتب بحماس عن حلمه في عالم لا محل للحرب فيه. كانت حياته فريدة من نوعها. فحتى سن ٣١ عاماً كرس حياته لخدمة الفقراء. ثم شكلت سولفرينو نقطة تحول مؤلمة في حياته، تلتها الشهرة والنجاح ثم الإفلاس. عاش ١٥ عاماً منبوذاً وفقيراً ثم ١٥ عاماً أخرى من الشهرة لم يغادر خلالها هاتين الغرفتين.

وسائل الدمار الهمجي الجديدة. وفي جو النشوة الجديد الذي غمره ناشد أمم العالم أن تتمعن في رسالته الآتية: «إن نزع السلاح يجب أن يبدأ في القلوب ويجب أن تشيع الأخوة بين البشر».

في تلك الفترة أيضاً أخذت بعض أفكاره الأولى تعطي أكلها. فبموجب اتفاقية لاهاي لعام ١٨٩٩، شملت اتفاقية جنيف المعارك البحرية ونظمت معاملة أسرى الحرب. فكانت هذه الإنجازات تضاهي بالنسبة له كل الجوائز.

وفي عام ١٩٠١ جاء اعتراف العالم رسمياً بإنجازات هنري دونان إذ منحت لجنة نوبل أولى جوائزها للسلام إلى دونان وفردريك باسي الذي كان دونان يكن له جل احترامه. فاكسبت هذه الجائزة دونان شهرة امتدت أيضاً إلى سويسرا وساعدته على تجاوز شعوره العميق بالأذلال.

طابع بمناسبة الاحتفال بمرور ١٢٥ عاماً على تأسيس الصليب الأحمر.

السنـــــوات الأخـــيرة

خلال سنوات حياته الأخيرة طالع هنري دونان بكثرة. ومن خلال قراءاته اكتشف قصص جديدة عن المعاناة، ليس معاناة الجنود أو الأسرى، بل معاناة رجال ونساء عاديين طحنتهم دوامة عالم الثورة الصناعية المتغير.

بعد سنوات عصيبة ذاق خلالها عذاب الفقر وجد دونان الهدوء والسلام في شيخوخته.

رأى الفقر وظروف العمل السيئة واستغلال الأطفال فتأثر غير أن الوقت لم يسعفه للكفاح من أجل هؤلاء الناس أو لرؤية العمل الذي أنجزه الصليب الأحمر والهلال الأحمر من أجل هؤلاء السكان.

أعد دونان وصيته. وكانت -كما يمكن أن نتوقعه من رجل مثل دونان-في غاية النزاهة والأنصاف. لم يكن قد مس المال الذي عادت به عليه جائزة نوبل. فطلب أن يوزع ما يتبقى منه على المؤسسات الخيرية، بعد تسديد كل ديونه.

وفي يوم الأحد الموافق ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٠ فارق هنري دونان الحياة عن عمر يناهز ٨٢ عاماً. ومن رجل جنيف الغريب والمرتبك هذا، الذي تكاد فكرته تكون أكبر من أن يتحملها، ولدت حركة امتدت إلى أرجاء المعمورة، وشملت ملايين البشر. حركة تجلب المساعدة للجنود والمدنيين على حد سواء، حركة أوسع مما كان يحلم به دونان.

في ذكرى هنري دونان

توفي هنري دونان عام ١٩١٠ . وفي ذلك الوقت كانت ٥٧ دولة في العالم قد وقعت على اتفاقيات جنيف، وكان ما يزيد على ٤٠ بلداً قد أنشأ جمعيته الوطنية للصليب الأحمر أو الهلال الأحمر.

أما الآن، وبعد مرور ١٢٥ عاماً على تأسيس الصليب الأحمر، وقعت ١٦٥ دولة على الاتفاقيات وتوجد ١٤٦ جمعية وطنية من جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر. ولا توجد أي اتفاقية أخرى في تاريخ العالم، حظيت بهذا العدد الكبير من التوقيعات، كما لا توجد منظمة إنسانية تضم هذا العدد من الأعضاء المنتشرين في مثل هذا العدد الكبير من البلدان.

ونستعرض في الصفحات التالية المجموعة الواسعة من الأنشطة التي ينجزها الصليب الأحمر والهلال الأحمر، كتوفير الإسعافات الأولية في مظاهرةٍ وتوفير ملايين الأطنان من الإمدادات لضحايا المجاعات. ولعل أكبر إشارة بذكرى هنري دونان هي عمل الصليب الأحمر والهلال الأحمر في كل أنحاء العالم.

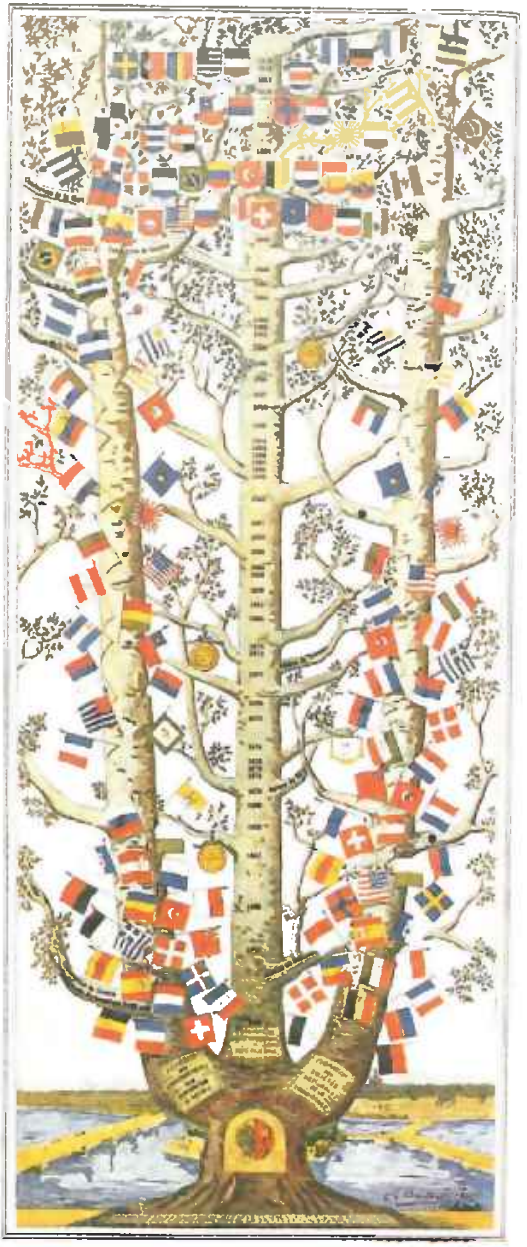

يمثل هذا الرسم الموقعين على اتفاقيات جنيف (الفرع الأيسر للشجرة) وإنشاء الجمعيات الوطنية عاماً تلو الآخر (الفرع الأيمن للشجرة) حتى عام ١٩١٣، بعد وفاة هنري دونان بسنوات قليلة.

(أعلى) قافلة من الشاحنات المحملة بالمواد الغذائية تدخل ألمانيا في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية.
(أسفل) خلال الحرب العالمية الثانية، أرسلت ملايين الرسائل إلى أسرى الحرب عن طريق الصليب الأحمر.

ميراث هنري دونان

عندما توفي هنري دونان عام ١٩١٠ أخيراً كان على وفاق مع العالم، لم يكن ليتخيل الحجم الذي ستبلغه الحركة التي كان هو وراء إنشائها. كان قد مر نصف قرن على رحلته المشهودة إلى سولفرينو وانتشرت جمعيات الصليب الأحمر فيما يزيد على أربعين بلداً.

أما اليوم فقد أضحت الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر أكبر منظمة إنسانية في العالم وتضم نحو ٢٥٠ مليون عضو من مختلف الأجناس والمعتقدات السياسية والدينية ولكنهم يخدمون قضية واحدة. لا ينقطع أفراد الصليب الأحمر والهلال الأحمر عن العمل سواء في وقت السلم أو في وقت الحرب، مقدمين المساعدة والمواساة حيثما وجدت المعاناة أو حلت الكوارث.

لم تمض أربع سنوات على وفاة دونان حتى أندلعت الحرب العالمية الأولى. ولم تبلغ موقعة سولفرينو في بشاعتها، ما بلغته هذه الحرب،

في الحرب العالمية الأولى (١٩١٨-١٩٢٤) أي بعد وفاة هنري دونان بأربع سنوات فقط أصبحت شارة الصليب الأحمر للذراع رمزاً مألوفاً في الخنادق.

(الصورة الثانية) العاملون الطبيون في الهلال الأحمر لاذربيجان في العشرينات. علماً بأن رمز الهلال الأحمر استُخدم للمرة الأولى في روسيا عام ١٨٧٦. ثم اعتمدت بلدان أخرى هذا الرمز حتى أصبح ٢٣ بلداً يستخدم اليوم رمز الهلال الأحمر بدلاً من الصليب الأحمر.

(إلى الأسفل) لينينغراد عام ١٩٣٤. استخدام الاتحاد السوفييتي لرمزي الصليب الأحمر والهلال الأحمر ظاهرة فريدة من نوعها.

ولكن كانت فرق المتطوعين المدربين لحسن الحظ موجودة لرعاية الجرحى ونقلهم في سيارات الإسعاف ومعالجتهم في المستشفيات الميدانية.

سمى الناس الحرب العالمية الأولى «خاتمة الحروب». وبانتهائها حول الصليب الأحمر اهتمامه نحو التخفيف من المعاناة الناجمة عن أسباب أخرى كالمجاعة والأوبئة والزلازل. وفي عام ١٩١٩ تم تأسيس رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر لتشجيع وتنسيق الأنشطة التي تنفذ في أوقات السلم.

إلا أن شبح الحرب لم يبتعد عن العالم طويلاً، إذ سرعان ما حملت الحرب العالمية الثانية مذابح الخطوط الأمامية إلى عقر دار المواطنين العاديين، في حين تكدس الأسرى في مخيمات في كل أنحاء العالم. ومرة أخرى بذل الصليب الأحمر كل ما في وسعه من أجل الضحايا ويواصل تقديم خدماته في النزاعات التي تجتاح العالم منذ عام ١٩٤٥ في الهند الصينية، وأفريقيا وأمريكا الوسطى والشرق الأوسط.

(اليمين) إعادة الأسرى الجرحى إلى بلدهم، في الحرب بين العراق وإيران، طبقاً لما نصت عليه اتفاقيات جنيف.

(أعلى يسار) يجب احترام أسرى الحرب والسماح لهم بإجراء اتصالات مع أسرهم. تسهم الزيارات التي تقوم بها اللجنة الدولية للصليب الأحمر للأسرى في ضمان احترام حقوقهم.

(أسفل) عند اندلاع حروب أهلية يلقى القبض على الناس أحياناً لأسباب سياسية أو «أمنية». وتطلب اللجنة الدولية زيارة هؤلاء المعتقلين للتأكد من معاملتهم بإنسانية.

معاملة الأسرى

تنص اتفاقيات جنيف التي أقرتها معظم بلدان العالم، على وجوب معاملة أسرى الحرب معاملة حسنة: فيجب ألا يقتلوا أو يعذبوا، ولهم الحق في مأوى ملائم وفي الحصول على غذاء وملبس ورعاية طبية؛ ويجب أن يسمح لهم باستلام رسائل وطرود من أسرهم؛ ويمكن تفتيش معسكراتهم من قبل وكالة محايدة مثل اللجنة الدولية للصليب الأحمر، هذه الهيئة التي ساهم دونان في إنشائها.

فعندما يدخل بَلَدان في حرب، كالعراق وإيران، أو الأرجنتين وبريطانيا في جزر فوكلاندز، فعليهما أن يفتحا أبواب معسكرات الأسرى للجنة الدولية للصليب الأحمر. غير أن الأسرى الذين تزورهم اللجنة الدولية هذه الأيام هم معتقلون سياسيون لا تحميهم اتفاقيات جنيف. وفي هذه الحالات، تجرى اللجنة الدولية مفاوضات مع السلطات المحلية لكي ترخص لمندوبيها بالدخول إلى السجون.

وللحصول على هذا الترخيص تعتمد اللجنة على سمعة الحياد المطلق التي تتمع بها، أي عدم تحيزها لطرف أو لآخر.

ومن أجل ذلك تستقطب اللجنة الدولية كافة مندوبيها من سويسرا المحايدة. وسواء كان الأسرى من جنود أفريقيا الجنوبية البيض أو من الوطنيين السود، مسيحيين أو مسلمين، لبنانيين أو كوبيين أو أمريكيين، أُسروا في نزاع، فإن المبدأ نفسه يطبق عليهم جميعاً، وهو أن الأسير إنسان يستوجب الاحترام.

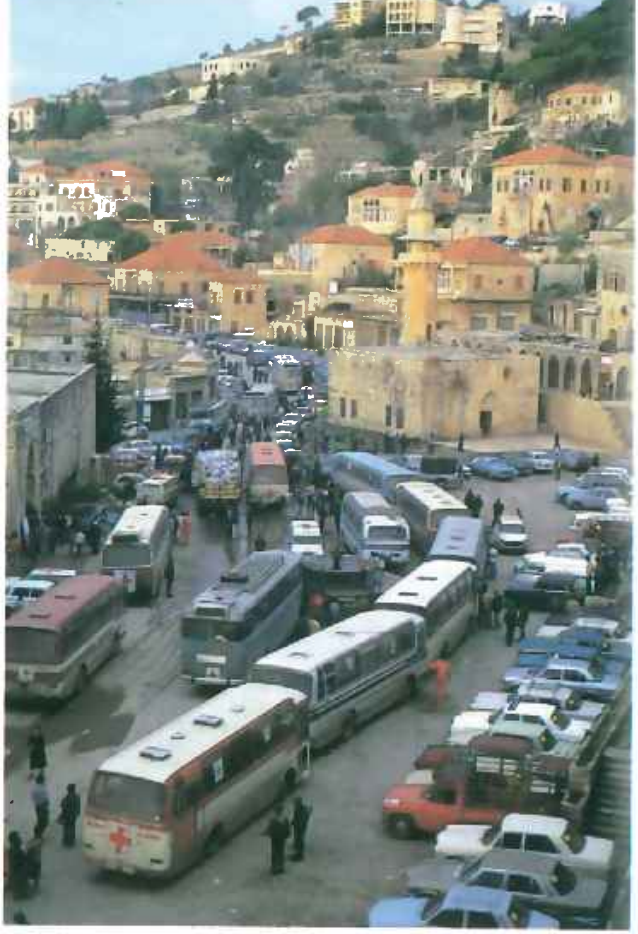

قافلة من حافلات الصليب الأحمر تنقل النساء والأطفال من مدينة محاصرة في لبنان إلى مكان آمن. فقد فرضت قوات معادية الحصار على هذه المنطقة لعدة أشهر وقطعتها عن بقية أجزاء البلاد. وظل الصليب الأحمر هو القناة الوحيدة لتوصيل إمدادات الإغاثة. وحصل على موافقة لإجلاء النساء والأطفال بعد أسابيع من التفاوض.

حماية السكان المدنيين

أثناء الحرب العالمية الثانية، تضرر المدنيون من المعارك بشكل لم يسبق له مثيل. فقد قصفت المدن بالقنابل وانتقم من القرويين ونفذت عمليات الاستبعاد والإبادة الجماعية للسكان. وقد وضع المجتمع الدولي في القواعد التي اعتمدها منذ الحرب العالمية الثانية وبدءا باتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩، معايير حماية المدنيين أثناء الحرب. وعلى الرغم من ذلك، يظل السكان المدنيون معرضين للخطر ومقطوعين عن كل أشكال المساعدات الغذائية والطبية. واليوم، يستهدف الكثير من عمليات الصليب الأحمر والهلال الأحمر للطوارىء، مساعدة السكان المدنيين عن طريق تزويدهم بالمواد الأساسية. ويمثل وجود أفراد هذه المنظمة، بين السكان في مناطق النزاع، في حد ذاته، مساعدة معنوية كبيرة. وفي الظروف المتوترة التي تتميز بها النزاعات يتعين على أفراد الصليب الأحمر والهلال الأحمر

(أعلى) نظام البطاقات الهائل الذي استخدم للبحث عن المفقودين في الحرب العالمية الثانية. أصبح معظم هذا العمل يُنجز اليوم بالحاسبات الإلكترونية.

(أسفل) «هل رأيتم ابني؟» تلجأ الأسر إلى الصليب الأحمر للبحث عن أعز الناس إليها.

أن يتخذوا موقفاً حازماً لتأمين وصول الإغاثة إلى الذين هم بحاجة إليها.

البحث عن المفقودين

إن أمرّ ما يمكن أن يحدث للمرء في الحرب هو أن يجهل ما حدث لأخت أو لأخ أو لأب... أثناء القصف أو في فوضى المعركة لإجلاء يجري. فيسيطر على ذهنه بالحاح سؤالان: هل نجوا أم لا يا ترى؟ أين هم الآن؟

ولم يألُ الصليب الأحمر جهداً، منذ عام ١٨٧٠ للرد على هذين السؤالين. وتحاول وكالته المركزية للبحث عن المفقودين التي يقع مقرها في جنيف أن تضع أفراد الأسر على اتصال ببعضهم ففي الحرب العالمية الأولى مثلاً، وضعت الوكالة سجلات بأسماء ٧ ملايين شخص مفقود وكانت، في بعض الأحيان تتلقى ٣٠ ٠٠٠ رسالة يومياً من الأسر.

أما في الحرب العالمية الثانية، فقد تبادل أسرى الحرب وعائلاتهم مائة مليون رسالة عن طريق الوكالة. وكانت مشكلة المدنيين مماثلة في سعتها لمشكلة الأسرى، إذ تم اقتلاع ملايين السكان من موطنهم، أرسل العديد منهم في معسكرات عمل في بلدان أخرى، في حين اختفى الآخرون. وفي نهاية الحرب نجحت الوكالة في جمع ٧٠٠ ٠٠٠ أسير بعائلاتهم. واليوم لا يزال ٢٥٪ من عمل الوكالة يتعلق بحالات تعود إلى الحرب العالمية الثانية.

تشكل المعلومات عنصراً أساسياً في نجاح عمل الوكالة، كالأسماء والعناوين وغير ذلك من المعلومات الأساسية التي يمكن العثور عليها في القوائم والرسائل، ويمكن لكل عنصر أن يكشف عن هوية شخص ما. وتحتفظ الوكالة بكل هذه التفاصيل التي تعتبرها سرية، عليها

فراق دام أكثر من أربعين عاماً: ناتاليا وغالينا غولوفاشيفا شقيقتان أبعدتا من الاتحاد السوفييتي إلى ألمانيا في ١٩٤٢. وقبل انتهاء الحرب فرت غالينا إلى بلجيكا أما ناتاليا فعادت إلى الاتحاد السوفييتي. وبعد استفصاءات باءت بالفشل اعتقدت كلا من الاختين أن الأخرى توفيت. ثم قامت ناتاليا بمحاولة أخيرة للبحث عن شقيقتها. فأرسل طلبها إلى الصليب الأحمر في موسكو أولاً ثم إلى الوكالة المركزية للبحث عن المفقودين في جنيف. وبيّنت سجلات الوكالة أن غالينا وزوجها، وهو من أسرى الحرب السابقين، يقيمان في بلجيكا فواصل الصليب الأحمر البلجيكي البحث وعثر على غالينا فاجتمعت الشقيقتان أخيراً في مطار موسكو في لقاء حار ومؤثر.

تطابق طلباً للحصول على معلومات من أحد أقارب الشخص المفقود.

مهمـــة جاريـــــة

لم ينشب نزاع منذ عام ١٩٤٥ إلا وكانت الوكالة المركزية للبحث عن المفقودين متأهبة لتقديم خدماتها فيه، حتى أن ملفاتها أصبحت تضم ما يزيد على ستين مليون بطاقة. وهي تقوم كل عام بنقل أكثر من مليوني رسالة بين أعضاء الأسر المفرقين، كما تقوم بجمع شمل عشرة آلاف أسرة تقريباً أو إعادتهم إلى أوطانهم.

«أثناء الحرب العالمية الثانية، كتبت قائمة بأسماء الأسرى على علبة سجائر ورميت من قطار. فوجدها شخص وأرسلها إلينا». مسؤول في الوكالة المركزية للبحث عن المفقودين.

(أعلى) لاجئون من كمبوشيا في تايلندا يمثلون مسرحية تبين المعاملة الوحشية التي يمكن أن يلقاها الأسرى ما لم تطبق مبادىء اتفاقيات جنيف.

(أسفل) أطفال في أثيوبيا التي تنهشها الحروب، يقرأون في كتب وفرها الصليب الأحمر. من شأن إطلاعهم على مبادىء الصليب الأحمر أن ينقذ حياة الناس إذا انتهى بهم الأمر في المشاركة في الحرب مع الجيش أو مع الثوار؟

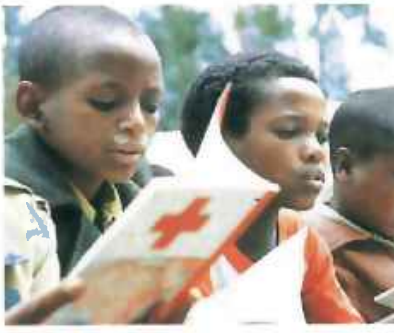

وغالباً ما تعمل الوكالة بتعاون وثيق مع خدمات البحث عن المفقودين في جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر الوطنية، كما هو الحال مثلاً بالنسبة للاجئي القوارب الفيتناميين. وتوجد شبكة حسنة التنظيم تعمل في كل أنحاء جنوب شرقي آسيا لتسجيل أسماء هؤلاء اللاجئين وتحاول إعادة اتصالهم بأسرهم.

نشـــر المبـــادىء

أثبت هنري دونان طوال حياته ضرورة نشر الأفكار الأساسية للصليب الأحمر والمبادىء الواردة في اتفاقيات جنيف على الجميع، جنوداً وثواراً وحكومات ومدنيين، في حالات النزاعات.

فما الفائدة من وجود قواعد للتخفيف من المعاناة في الحرب، إن جهل الناس وجودها؟ وعليه يمضي أفراد الصليب الأحمر والهلال الأحمر فترات متزايدة في نشر المبادىء عن طريق تنظيم الاجتماعات ونشر الكتب وتمثيل المسرحيات، بل وحتى بالمجازفة بحياتهم من أجل حماية ضحايا العنف. ففي جنوب أفريقيا اعترضت مساعدة اجتماعية مؤخراً طريق متظاهرين أمام باب مكتبها في الصليب الأحمر لحماية رجل جريح.

أحد العاملين في اللجنة الدولية يُعد جهازه لعرض فيلم على القوات الحكومية في السلفادور. إذ يجب في حالات الحروب الأهلية شرح قواعد السلوك الإنساني على جميع أطراف النزاع أياً كان انتماؤهم.

(الأسفل) «احترام المدنيين» - قاعدة حيوية عندما يجد الرجال والنساء والأطفال أنفسهم في الخطوط الأمامية.

قانـــون الحـــرب

قد يكون أهم ما ورثناه عن هنري دونان، إلى جانب الحركة العالمية التي أسهم في إنشائها، هو حماية ضحايا الحرب التي نصت عليها اتفاقيات جنيف. شملت اتفاقية جنيف الأولى الجنود بحمايتها، ثم امتدت هذه الحماية فيما بعد لتشمل البحارة أيضاً. وبعد وفاة دونان اعتمد مبدأ حماية أسرى الحرب والمدنيين. وأدت اللجنة الدولية للصليب الأحمر دوراً هاماً في حمل الحكومات على الموافقة على هذه المبادىء كما فعلت خلال حياة هنري دونان.

وأجري آخر تنقيح هام على اتفاقيات جنيف عام ١٩٤٩ حيث كانت أحداث الحرب العالمية الثانية لا تزال عالقة في ذهن الحكومات والجمهور. ولكن مع ظهور أشكال جديدة من النزاعات خلال مرحلة الاستقلال عن الاستعمار، ولا سيما حرب العصابات، برزت الحاجة إلى وضع قواعد جديدة أضيفت إلى اتفاقيات جنيف

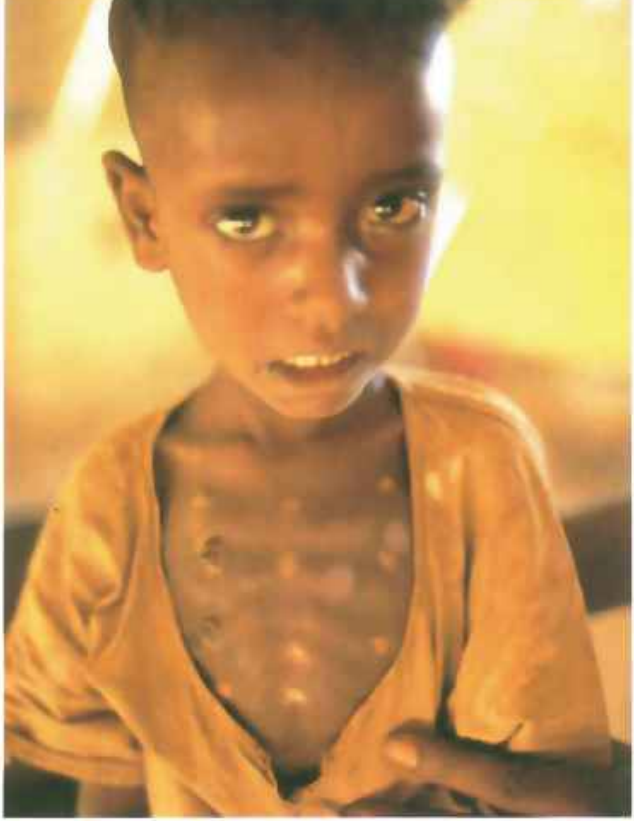

تبرز أحياناً حاجة إلى إمدادات غذائية هائلة في بلدان مثل أثيوبيا (أعلاه) والسودان (أدناه)، حيث تتلقى بعض المجتمعات التي تقطن أماكن نائية، حصتها من الإمدادات عن طريق قوافل.

أفراد الصليب الأحمر الـتشادي يوزعون الغذاء على صفوف لا نهاية لها من السكان الجائعين في إطار عملية إغاثة نظمتها الرابطة. إلا أنه يتعين تنفيذ مزيد من مشاريع التنمية، في الأجل الطويل لمكافحة أسباب المجاعة الأساسية.

في شكل جزئين ملحقين بها عام ١٩٧٧ سميا البروتوكولين الملحقين باتفاقيات جنيف.

وإن كانت كل هذه القوانين في غاية الدقة والتفصيل، فإن رسالتها الأساسية هي في غاية البساطة. ومفادها أنه يجب حماية الأشخاص الذين لا يشاركون في القتال-المدنيون-والذين لم يعودوا يشاركون فيه-كالأسرى والجرحى-ومعاملتهم بإنسانية.

إطعـــام الجوعـــى

في أجزاء عديدة من العالم لا تحصل فئات عريضة من السكان على كفايتها من المواد الغذائية ليس ليوم واحد أو يومين بل طوال الوقت. ويؤثر الافتقار إلى التغذية المنتظمة والصحية، أكثر ما يؤثر على الأطفال والمسنين فتهزل أجسادهم وتتدهور مناعتهم. وفي حالات القحط الناجمة عن الجفاف أو تلف المحاصيل أو الحرب، يكون الأطفال والمسنون أول من يصاب بأمراض تؤدي بحياتهم أحياناً. وعندما حلت المجاعة في أفريقيا ما بين ١٩٨٤ و١٩٨٦ عملت رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر مع الجمعيات الوطنية لإطعام ثلاثة ملايين شخص تقريباً في اثنين وعشرين بلداً.

وعملاً بالمثل القائل «الوقاية خير من العلاج»، قرر أفراد الصليب الأحمر والهلال الأحمر أن يركزوا عملهم على مشاريع الوقاية من الكوارث، مثل مساعدة المزارعين على زرع محاصيل كافية وتوفير مياه صالحة للشرب وغرس الأشجار لمكافحة عوامل التعرية وتطعيم الأطفال ضد الأمراض التي تقتل خمسة ملايين منهم كل عام.

شبكـــة عالميـــة

اينما وحيثما حلّت كارثة كبرى في العالم تلقى مقر رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر في جنيف نداء عن طريق التلكس لالتماس المساعدة.

ومنذ إنشائها عام ١٩١٩، عملت الرابطة على تنسيق ما يزيد على ألف عملية إغاثة دولية لمساعدة ضحايا الزلازل والأعاصير والانفجارات البركانية والفيضانات والمجاعات.

والرابطة اتحاد يتكون من ١٤٦ جمعية وطنية من جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، وتقوم بتشغيل شبكة عالمية للمساعدة والتأكد من إرسال إمدادات الإغاثة إلى منطقة الكارثة بأسرع وقت ممكن ودون ازدواج، كأن تطلب البطاطين من بلد والأدوية من بلد آخر وطائرة للنقل من بلد ثالث وهلم جرا.

أما موظفو الرابطة وموظفوها الميدانيون كالأطباء والممرضات وأخصائيي النقل والمديرين، فهم موظفون دوليون فعلاً إذ أنهم ينتمون إلى مختلف دول العالم. وإلى جانب عمليات الإغاثة، يتمثل قسط هام من عمل هؤلاء الموظفين في المساعدة على إنشاء جمعيات قوية للصليب الأحمر والهلال الأحمر في كل أنحاء العالم تكون متأهبة لمواجهة الكوارث وتنفيذ المشاريع الخاصة بالصحة والشباب.

وتقدم الرابطة مساعدتها أيضاً في مجال رعاية اللاجئين خارج مناطق

أسرة نجت من الانجراف الطيني المروع في كولومبيا عام ١٩٨٥. ساعدت الرابطة، منذ عام ١٩١٩ ضحايا ما يزيد على ألف كارثة كبرى.

النزاع في السودان وباكستان وأمريكا اللاتينية مثلاً. وتمثل الجمعيات الوطنية على الصعيد الدولي، عن طريق إقامة اتصالات بالأمم المتحدة وغيرها من منظمات الإغاثة والتنمية.

الاستعداد لمواجهة الكوارث

يصعب على المرء أحياناً أن يتخيل حجم العمل الذي يضطلع به الصليب الأحمر والهلال الأحمر. فالزلزال أو القتال يُخلف آلاف الجرحى والمشردين الذين لا يحتاجون إلى المساعدة الطبية فحسب، بل أيضاً إلى جهة توفر لهم الغذاء والرعاية بسرعة.

إن أول من يتأهب للعمل في هذه الحالات هم متطوعو جمعية الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر في البلد الذي حدثت فيه الكارثة. قد ينفذ مخزون الأغذية والأدوية في البلد المنكوب تتصل الجمعية الوطنية بمقر الرابطة في جنيف التي لها مخازنها المنتشرة في كل أنحاء العالم، وبالتالي يمكنها شحن آلاف الأطنان من إمدادات الإغاثة إلى المنطقة المنكوبة.

في معظم البلدان يكرس الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر الكثير من وقته لتدريب المتطوعين على الإسعافات الأولية وعلى الاستعداد لمواجهة كل أنواع الكوارث. ففي بنغلاديش، مثلاً، التي تجتاحها

عندما يعمل الصليب أو الهلال الأحمر فهو يجسد الإنسانية في أروع صورها فها هي أطنان المواد الغذائية والأدوية تعد لمساعدة المحتاجين فضلاً عن الشاحنات وسيارات الإسعاف التي دفع ثمنها الجمهور من كل أنحاء العالم. لو كان هنري دونان حياً يرزق اليوم لعجب وأعجب بنطاق هذه المساعدات.

طفلان صينيان يتعلمان مبادىء الإسعافات الأولية. تشجع جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر في كل العالم، الشباب على تعلم الإسعافات الأولية إذ أنها تجعلهم مستعدين لتقديم المساعدة في أي وقت.

كل عام أعاصير وفيضانات مدمرة، تقوم الرابطة ببناء مآوٍ يمكن لسكان قرى كاملة أن تلجأ إليها بانتظار مرور الأعصار.

التدريب على الإسعافات الأولية والرعاية الاجتماعية

كان أحد أحلام هنري دونان هو إنشاء فرق من المتطوعين المدربين في كل أنحاء العالم تكون على أهبة الاستعداد لتقديم يد المساعدة للجميع أثناء الحروب وفي فترات السلم على حد سواء.

واليوم، تدرب كل الجمعيات الوطنية أعضاءها على الإسعافات الأولية لكي يكونوا مستعدين لمواجهة الحوادث أو الكوارث الكبرى أو لمساعدة شخص يُغمى عليه في بيته أو في الشارع.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية، كشفت دراسة أجراها الصليب الأحمر الأمريكي أن الأشخاص القادرين على تشغيل سياراتهم المعطلة هم أكثر بكثير من أولئك الذين يجيدون أساليب الإنقاذ في حالات الطوارىء. فلو تعلم كل فرد الإسعافات الأولية الأساسية لأمكن إنقاذ آلاف الأشخاص.

والإسعافات الأولية طريقة يمكن الإسهام بها في مساعدة المجتمع. ويمكن للشباب المشاركة في هذه الخدمات إذ تُنظم في معظم البلدان دورات التدريب للشباب على الإسعافات الأولية.

وفضلاً عن ذلك، تقدم جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر، بشكل متزايد خدمات اجتماعية للمسنين والمرضى في المستشفيات، ولمدمني المخدرات وكذلك للمصابين بالإيدز.

رعايـــة المعوقـــين

في معركة سولفرينو، فقد جنود كثيرون أحد أطرافهم في القتال. ولا يزال الجنود اليوم يواجهون نفس المصير في ساحات القتال، بل أن المدنيين أنفسهم لم يعودوا في مأمن من الإصابات الخطيرة بسبب القصف، وتشكل الألغام خطراً فعلياً على الأطفال.

ومنذ إنشائه، اعتنى الصليب الأحمر بالمعوقين وظل يدربهم على اكتساب مهارات جديدة لكي يتمكنوا من كسب عيشهم ويحيوا حياة طبيعية.

وعلى المستوى الوطني، تنظّم جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر مشاريع خاصة للأشخاص المعوقين عقلياً أو بدنيا. فعلى سبيل المثال يملك الصليب الأحمر الهولندي باخرة خاصة تحمل اسم «هنري دونان» يقضي عليها المعوقون أجازتهم. وتنظّم جمعيات أخرى

(إلى اليمين) أطفال يلعبون في الوحدة الطبية الخاصة التي انشئت في أنغولا لمساعدة الذين فقدوا أطرافهم أثناء الحرب الأهلية هناك. يشكل توفير الأطراف الصناعية جزءاً هاماً من عمل هذه الوحدة.

(إلى اليسار) يبذل الصليب الأحمر السويسري جهوداً كبيرة من أجل المعوقين. ولديه حافلات مصممة خصيصاً للمعـــوقين بكـــراسي متحركة. وينظم كل عام رحلات إلى الريف لما يزيد على ١٢ ألف معوق. كما وضعت اللجنة الدولية للصليب الأحمر والرابطة، ومقرهما سويسرا، مشاريع دولية هامة لفائدة المعوقين.

حفر الآبار في القرى، كهذا البئر في نيبال، هو من ضمن الأعمال التي ينجزها الصليب الأحمر والهلال الأحمر في العالم الثالث.

الأمل في المستقبل هو جوهر عمل الصليب الأحمر والهلال الأحمر الذي تجسده هذه الفتاة الأثيوبية المتطوعة، فستساعد شجيرتها في مقاومة التصحر.

مشاريع مماثلة أما داخل البلاد أو خارجها. وتعطي مثل هذه المشاريع لشباب الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر فرصة لمساعدة الآخرين.

الجمعيات الوطنية للصليب الأحمر والهلال الأحمر

توجد اليوم جمعيات للصليب الأحمر والهلال الأحمر معترف بها في ١٤٦ بلداً، ويجري إنشاء جمعيات أخرى في ١٥ بلداً آخراً تقريباً. وبذلك يوشك حلم هنري دونان في إنشاء حركة عالمية تغطي العالم كله، أن يتحقق فعلاً.

وتضم الحركة حالياً نحو ٢٥٠ مليون عضو يشكل الشباب دون سن الخامسة والعشرين نصفهم تقريباً. ويتعهد كل أعضاء الحركة بدعم مبادئها الأساسية ألا وهي الإنسانية وعدم التحيز والحياد والاستقلال والخدمة الطوعية والوحدة والعالمية. وتضمن هذه المبادىء أن تركز الجمعيات الوطنية عملها على تفادي المعاناة والتخفيف منها في حالة وقوعها، دون تمييز ودون تحيز لأي طرف في أي نزاع. وغاية الحركة

واضحة فهي ترمي إلى تعزيز الفهم المتبادل واقرار السلم الدائم بين شعوب العالم أجمع.

وعلى الرغم من الاختلافات القائمة بين مناطق العالم، فإن جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر تقدم نفس الخدمات الأساسية كالتدريب على الإسعافات الأولية واستقطاب المتبرعين بالدم وإدارة خدمات نقل الدم في بعض البلدان، ولها جميعاً أقساماً للشباب لدفع الشباب إلى مساعدة الآخرين بشكل عملي. وهناك خدمات أخرى تقدمها الجمعيات الوطنية وفقاً للاحتياجات المحلية كتدريب الممرضات في منغوليا وحفر الآبار في أثيوبيا ومساعدة ضحايا الزلزال في الاكوادور وتنظيم معسكرات دولية للشباب في مصر وغرس الأشجار في موريتانيا، ورعاية اللاجئين في ملاوي وتزويد وحدات الإسعافات الأولية في مصانع موسكو بالمتطوعين... فالصليب الأحمر والهلال الأحمر «في كل مكان ومن أجل الجميع».

لقد تحوّلت الحركة، منذ نشأتها في ساحة معركة سولفرينو، إلى أكبر منظمة إنسانية في العالم. ولا يزال أعضاؤها في كل مكان، يسترشدون بفكرة هنري دونان القائلة بضرورة وجود نساء ورجال يكرسون أنفسهم، في زمن الحرب وفي وقت السلم على السواء، لحماية الحياة.

(إلى أعلى) أسهم التدريب الأساسي لأفراد الصليب الأحمر اللبناني في إنقاذ حياة الكثيرين عندما نشبت الصراعات الطائفية المأساوية في السبعينات والثمانينات.

(أعلاه) متطوعة من الصليب الأحمر البريطاني تساعد امرأة مسنة. إن عمل الصليب الأحمر في أوقات السلم ليس ملفتا للنظر ولكنه لا يقل إنسانية عن العمل الذي ينجزه على الصعيد العالمي.

تواريـــخ هامـــة

١٨٢٨ ولادة هنري دونان في الثامن من شهر أيار/مايو في جنيف، سويسرا.

١٨٣٤ في زيارة إلى جنوب فرنسا بصحبة والديه، صدم دونان لرؤية السجناء المكبلين بالأغلال.

١٨٤٧ في سن الثامنة عشرة، كان دونان يزور الفقراء والسجناء في جنيف.

١٨٤٩ في سن الحادية والعشرين حصل على تدريب في أحد المصارف بجنيف.

١٨٥٣ أسهم دونان في تشكيل الاتحاد العالمي **لجمعيات الشبان المسيحيين**. وفي سن الخامسة والعشرين رحل إلى الجزائر للعمل.

١٨٥٨ حوّل دونان مشروعه الجزائري إلى شركة محدودة. وأصدر كتيباً ندد فيه بالعبودية.

١٨٥٩ ٢٤ حزيران/يونيو: معركة سولفرينو التي تواجهت فيها جيوش فرنسا وساردينيا والنمسا في شمال إيطاليا. شهد دونان هذه المعركة وكان سنه آنذاك ٣١ عاماً. ٢٥-٢٧ حزيران/يونيو: عمل دونان ليل نهار لمساعدة الجرحى.

١٨٦٠ تلقى دونان وسام سانت موريس وسانت لازادوس في إيطاليا على العمل الذي أنجزه لصالح الجرحى بعد معركة سولفرينو.

١٨٦٢ نشر دونان «تذكار سولفرينو» حيث اقترح إنشاء جمعيات وطنية دائمة للغوث مؤلفة من متطوعين لرعاية الجرحى أثناء الحرب.

١٨٦٣ شباط/فبراير: الجمعية الخيرية في جنيف تنشىء لجنة من خمسة أشخاص لدعم أفكار دونان. ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر: **ولادة الصليب الأحمر**. اجتمع واحد وثلاثون مندوباً من ستة عشر بلداً في جنيف لصياغة مشروع اختصاصات جمعيات الغوث. اعتمد رمز الصليب الأحمر لتمييز المنقذين في ساحة المعركة. كان دونان قد بلغ حينذاك الخامسة والثلاثين من العمر.

١٨٦٤ ٢٢ آب/أغسطس: **اتفاقية جنيف الأولى**. اجتمع ديلوماسيون من ١٥ دولة أوروبية لتوقيع اتفاقية تتعلق بالمعاملة الإنسانية لكل الجنود الجرحى وحماية العاملين الطبيين.

١٨٦٧ إفلاس دونان ورحيله عن جنيف إلى الأبد. كان قد بلغ سن التاسعة والثلاثين. كانت الجمعية الهولندية أولى من اعتمد تسمية «جمعية الصليب الأحمر».

١٨٧٠-١٨٧١ الحرب الفرنسية البروسية وحصار باريس. في باريس نظم دونان عمليات توزيع الغذاء والبطاطين والمساعدات على الجيوش. وفي وقت لاحق ساعد ضحايا حكومة باريس الثورية على النجاة. كان يقوم بدور الوسيط بين الجنرالات الفرنسيين والألمان الذين يحاصرون باريس. وكان عمره آنذاك قد بلغ ٤٣ عاماً. وفي الوقت نفسه، كانت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في بازل، تقوم بأول عملية لها لتوزيع قوائم الأسرى لكي تكون أسرهم على علم بما جرى لهم. وأدت هذه المبادرة فيما بعد على إنشاء الوكالة الدولية لأسرى الحرب عام ١٩١٤.

١٨٧١-١٨٨٧ أمضى هنري دونان ١٦ عاماً في طي النسيان وبعيداً عن الأنظار، واصل خلالها كفاحه ضد الاستعباد ومن أجل مساعدة أسرى الحرب ودعا إلى توسيع نطاق اتفاقية جنيف لتشمل المعارك البحرية أيضاً.

١٨٧٥ اعتمدت لجنة جنيف تسمية «اللجنة الدولية للصليب الأحمر».

١٨٧٦ اعتمدت الحكومة التركية الهلال الأحمر رمزاً لحيادها. وتبعتها بعد ذلك الدول الإسلامية.

١٨٨٧ في شهر تموز/يوليو استقر دونان في قرية هايدن بسويسرا وكان قد بلغ من العمر خمساً وستين عاماً وكان مريضاً.

١٨٩٢ انتقل إلى المستشفى المحلي الذي أصبح بيته طوال السنوات الثمانية عشرة الأخيرة من حياته.

١٨٩٥ آب/أغسطس: أجرى الصحفي جورج بومبيرجي مقابلة صحفية مع دونان صدرت على أثرها مقالته في صحيفة «أوبرلاند أومير» واستعاد دونان بفضلها شهرته السابقة.

١٨٩٩ مُدت حماية اتفاقية جنيف لتشمل حماية جرحى وغرقى المعارك البحرية.

١٩٠١ تلقى دونان أولى جوائز نوبل للسلام.

١٩٠٦ تنقيح أولى اتفاقيات جنيف واستيفاؤها.

١٩٠٧ أُدخلت اتفاقية لاهاي الرابعة مفهوم الحماية القانونية لأسرى الحرب.

١٩١٠ ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر: وفاة هنري دونان في مستشفى هايدن عن سن يناهز ٨٢ عاماً.

١٩١٤-١٩١٨ كانت الحرب العالمية أول تحدٍ هام يواجهه الصليب الأحمر. فتم حشد آلاف المتطوعين لمساعدة الجرحى في ساحة المعركة.

١٩١٧ أهديت اللجنة الدولية للصليب الأحمر جائزة نوبل للسلم. تأسيس رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر (وهي اتحاد الجمعيات الوطنية) التي تعمل على التخفيف من المعاناة الناتجة عن الكوارث الطبيعية.

١٩٢٠ افتتاح مكتب الصليب الأحمر للشباب في مقر الرابطة بجنيف.

١٩٢٩ اتفاقية جنيف الثانية التي تضع قواعد حماية أسرى الحرب ورعايتهم.

١٩٣٩-١٩٤٥ الحرب العالمية الثانية: وزع الصليب الأحمر على المدنيين في الأقاليم المحتلة إمدادات للإغاثة بلغ مجموع قيمتها ٥٠٠ مليون فرنك سويسري. وزارت اللجنة الدولية للصليب الأحمر ١١ ٠٠٠ أسير ما بين عسكري ومدني، وأرسلت لهم مساعدات قدرت قيمتها بمبلغ ٣,٥ ألف مليون فرنك سويسري.

١٩٤٤ اللجنة الدولية للصليب الأحمر تحصل على جائزة نوبل للسلام للمرة الثانية.

١٩٤٩ اعتماد اتفاقيات جنيف الأربع، المطبقة حالياً، وتشمل:
- جرحى المعارك البرية
- جرحى وغرقى المعارك البحرية
- أسرى الحرب
- المدنيون الخاضعون لسيطرة العدو.

١٩٦٠ أصبح اسم الوكالة الدولية لأسرى الحرب، هو الوكالة المركزية للبحث عن المفقودين ومهمتها البحث عن المفقودين بسبب المعارك وجمع شمل الأسر المفرقة ونقل الرسائل بين الأسرى وأسرهم، إلخ.

١٩٦٣ منحت جائزة نوبل للسلم للجنة الدولية للصليب الأحمر ورابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر معاً.

١٩٧٧ إضافة جزئين جديدين (بروتوكولان) إلى اتفاقيات جنيف، يشملان حماية ضحايا النزاعات الداخلية.

١٩٨٦ تعديل تسمية الصليب الأحمر الدولي إلى «الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر».

اليوم يوجد ٢٥٠ مليون متطوع في ١٤٥ جمعية وطنية التزمت بتقديم مساعدتها في حالات الكوارث، وبمساعدة الفقراء والمرضى والجرحى، ورعاية اللاجئين وتنظيم خدمات الدم، وتعليم الإسعافات الأولية والرعاية الصحية.

مصطلحات

متاريس: هيكل دفاعي، يشيد عادة بسرعة أثناء المعارك التي تنشب في الشوارع، بكل ما يقع تحت اليد من مواد كالعربات والحشايا والبراميل وغير ذلك مما يمكن نقله.

ثورة باريس: هو المجلس الذي أنشيء في باريس عام ١٨٧١ وكان مناهضاً للمسلم الذي وقعه المجلس الوطني في فيرساي مع بروسيا. وتحت قيادة هذا المجلس حارب سكان باريس قوات حكومة فيرساي وحلفائها البروسيين ولكنهم تقهقروا.

امتياز: حق تمنحه حكومة لاستخدام قطعة أرض أو ملكية لغرض محدد.

اتفاقية: هو اتفاق دولي رسمي.

أكزيما: مرض جلدي يصيب الجلد بالقشور في مواضع مختلفة ويجعله يرشح أحياناً سائلاً فاتح اللون. وتثير القشور رغبة شديدة في حك الجلد وإحساساً بالاحتراق يصعب تحمله. ويمكن حالياً التحكم في هذا المرض عن طريق الأدوية. ولكن في عصر هنري دونان لم يكن يوجد سوى محلول مهدىء ضعيف المفعول.

المبشرون بالإنجيل: مجموعات بروتستانتية تقيم حياتها على الإنجيل وتولي اهتماماً كبيراً للعقيدة الشخصية والإيمان بنجاة الروح.

اتحاد: رابطة أو اتحاد يشمل عدة مجموعات تقوم بعمل مشترك.

الاسعافات الأولية: رعاية طبية عاجلة توفر على أثر حادث. ويمكن أن تكون بسيطة للغاية كوضع ضمادة على جرح، أو معقّدة كالتنفس الاصطناعي أو انعاش القلب. وتقوم جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر بتدريب ملايين الأشخاص على اكتساب هذه المهارات كل عام.

المبادىء الأساسية: هي مدونة الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر. وهذه المبادىء هي: الإنسانية، عدم التحيز، الحياد، الاستقلال، الخدمة التطوعية، الوحدة والعالمية.

غنغرينا: عندما ينقطع وصول الدم إلى جزء من الجسم فإن الموت يتسلل إلى هذا الجزء المحروم من الدم. فيتخذ الجلد لون أسود ويبدأ بالتعفن فتنسرب منه رائحة كريهة. والعلاج الوحيد للغنغرينا هو بتر العضو المصاب.

اتفاقيات جنيف: هي معاهدات دولية تصبح قواعد تطبق في النزاعات من أجل حماية الأشخاص الذين لا يشتركون في المعارك (المدنيون) أو الذين لم يعودوا يشتركون فيها (الجرحى والمرضى وأسرى الحرب). وتناولت اتفاقية جنيف لعام ١٨٦٣ حماية الجرحى والمرضى في ساحة المعركة. وتم توسيع نطاقها لاحقاً لتشمل ضحايا المعارك البحرية (١٨٩٩) وأسرى الحرب (١٩٢٩). وفي عام ١٩٤٩ تم تنقيح الاتفاقيات فأصبحت أربع اتفاقيات تغطي الجرحى والمرضى في الأرض والبحر، وأسرى الحرب، والمدنيون في الأراضي التي يسيطر عليها العدو. وفي عام ١٩٧٧ تم تحديث الاتفاقيات وتعديلها بإضافة بروتوكولين إليها لمراعاة تطورات الحرب الحديثة. وقد وقّعت ١٦٥ دولة (من أصل ١٧١) على الاتفاقيات.

اتفاقيات لاهاي: مجموعة من الاتفاقيات التي اعتمدت في مؤتمرات عقدت في ما بين ١٨٩٩ و١٩٠٧، وكانت الغاية منها هي تنظيم أساليب الحرب. وتتضمن هذه الاتفاقيات قواعد بشأن معاملة أسرى الحرب، وتفرض قيوداً على أساليب شن الحروب وقصف المدن وتحظر استعمال رصاص «دمدم».

الإنسانية: احد المبادىء الأساسية للحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر التي تقتضي من أعضائها أن يحولوا دون معاناة البشر والتخفيف منها وأن ينادوا بالصداقة والسلم والتفاهم في كل أنحاء العالم.

عدم التحيز: مبدأ ثانٍ من مبادىء الحركة يوجب على أعضائها ألا يميزوا بين الأفراد بسبب جنسهم أو دينهم أو جنسيتهم أو انتمائهم الطبقي أو آرائهم السياسية، وأن يعطوا الأولوية للذين هم بأشد الحاجة إلى المساعدة.

الاستقلال: يقضي هذا المبدأ بأن تحافظ الجمعيات الوطنية على استقلالها في ظل قوانين بلدها وحكومتها لكي تكون قادرة على تطبيق مبادىء الحركة (أنظر «الوحدة»).

اللجنة الدولية للصليب الأحمر: نشأت اللجنة الدولية عن «لجنة الخمسة» التي اجتمعت في جنيف في شهر شباط/ فبراير من عام ١٨٦٣. وبوضعها هيئة سويسرية فهي تعمل كوسيط محايد في النزاعات المسلحة والاضطرابات، لتوفير المساعدة والحماية لضحايا الحروب العالمية والأهلية والاضطرابات والتوترات الداخلية.

الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر: تنطوي تحت هذه التسمية اللجنة الدولية للصليب الأحمر ورابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر والجمعيات الوطنية (١٤٦ جمعية في عام ١٩٨٨). تعرف كذلك باسم «الصليب الأحمر الدولي».

إيطاليا: تم تأسيس هذا البلد عام ١٨٦٠ بجمع عدة دويلات داخل شبه الجزيرة الإيطالية.

واضيفت إليه المناطق المحيطة بالبندقية وروما في عام ١٨٦٦ و١٨٧٠ على التوالي.

رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر: أسسها في باريس مواطن أمريكي يدعا هنري دافيسون في شهر أيار/ مايو ١٩١٩. وكان الغرض من انشائها هو «مساعدة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر في العالم على بذل جهود منتظمة لتقدير آثار الكوارث والتخفيف من وقعها ومن معاناة الضحايا. وتعتبر الرابطة اليوم أكبر منظمة إنسانية في العالم بجمعياتها الـ١٤٦ وأعضائها البالغ عددهم ٢٥٠ مليون عضو. وهي تعمل على تنمية الجمعيات الوطنية وتنسيق عمليات الإغاثة ورعاية اللاجئين خارج مناطق النزاعات.

الجمعيات الوطنية: يمكن لكل بلد في العالم أن يُنشيء جمعية للصليب الأحمر أو الهلال الأحمر على أن تلتزم هذه الجمعية ببعض الشروط مثل احترام المبادىء الأساسية للحركة واستخدام الرمز الملائم.

نابليون الثالث: (١٨٠٨-١٨٧٣) كان ابن أخ نابليون الأول وحكم فرنسا ما بين ١٨٤٧ و١٨٧١ حيث خلع من الحكم. وأصبح امبراطوراً عام ١٨٥٢.

الحياد: أحد المبادىء الأساسية، يقضي من أعضاء الحركة بأن يمتنعوا عن التحيز لطرف أو لآخر أثناء الحروب أو الاضطرابات، والا يشاركوا في المجادلات السياسية أو العرقية أو الدينية أو الأيديولوجية.

بروسيا: جزء من أوروبا الذي يمثل اليوم ألمانيا. كان مكوناً في القرن التاسع عشر، من ١٣ دولة كبيرة و٢٥ دويلة. وكانت بروسيا أكبرها وكانت مؤلفة من كتلتين: إحداهما حول كولونيا والأخر حول برلين. وحكمت بروسيا منطقة واسعة من بولندا الحالية، ثم وسعت شيئاً فشيئاً من سلطانها على الدول الأخرى. وفي ١٨٧٠ أنشئت الإمبراطورية الألمانية في شكل اتحاد لكل هذه الدول تحت حكم ملك بروسيا.

الصليب الأحمر والهلال الأحمر: رمزا الحماية والمساعدة المحايدتين المعترف بهما عالمياً. اعتمد رمز الصليب الأحمر على خلفية بيضاء (العلم السويسري معكوساً) في مؤتمر جنيف لعام ١٨٦٣. واستخدم رمز الهلال الأحمر للمرة الأولى عام ١٨٧٦ من قبل الإمبراطورية العثمانية التي رأت في الصليب رمزاً مسيحياً. ومنذ ذلك الحين اعتمدت بلدان إسلامية أخرى رمز الهلال. ويُنظم القانون استخدام هذين الرمزين. إذ لا يحق استخدامه سوى من قبل الوحدات الطبية العسكرية والهيئات الأخرى التي أسندت إليها رسمياً مهمة رعاية الجرحى، إلى جانب أعضاء الصليب الأحمر والهلال الأحمر. ولا يجوز استخدام أي رمز جديد ما لم يوافق عليه مؤتمر دبلوماسي يجمع الحكومات.

الوحدة: يقضي هذا المبدأ من المبادىء الأساسية للحركة بوجود جمعية وطنية واحدة في البلد الواحد ويجب أن تفتح هذه الجمعية أبوابها لكل من يريد أن ينضم إليها، وأن تقدم خدماتها في كل أنحاء البلد ولكل سكانه.

العالمية: يقول هذا المبدأ بأن الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر حركة عالمية وأن كل الجمعيات الوطنية لها نفس الوضع ونفس الواجبات والمسؤوليات بصدد التعاون فيما بينها.

فيرساي: قصر واسع أمر الملك لويس الرابع عشر ببنائه في القرن السابع عشر. وهو يقع على بعد ١٢ ميلا غرب باريس. وقد أصبح القصر مقراً لحكومة المجلس الوطني الملكي أثناء ثورة باريس عام ١٨٧١.

الخدمة التطوعية: من المبادىء الأساسية للحركة، وهي تعني أن الصليب الأحمر والهلال الأحمر منظمة لا تستهدف الربح وأن موظفيها وأعضاءها يعملون بدافع من الرغبة في الخدمة.

كيف يمكنك أن تساعدنا

لو رغبت في مساعدة حركة الصليب الأحمر والهلال الأحمر في بلدك أو في الخارج، فيستحسن أن تتصل مباشرة بجمعيتك الوطنية.

إرجع إلى دليل الهاتف المحلي وانظر تحت «الهلال الأحمر» (أو «الصليب الأحمر») واتصل به ليرشدك إلى كيفية مساعدته. ويوجد بمعظم الجميعات الوطنية قسم للشباب يمكنك أن تتعلم فيه مبادىء الإسعافات الأولية والأساليب الأساسية والانقاذ. كما أن الجمعيات تنظم حملات لجمع التبرعات بشكل منتظم.

ويمكن لمكتب الصليب الأحمر/ الهلال الأحمر المحلي أن يزودك بمعلومات إضافية عن مشاريعه.

ويمكنك طلب المطبوعات التالية المتعلقة بالصليب الأحمر والهلال الأحمر من مكتب الجمعية الوطنية المحلي: تذكار سولفرينو، بقلم هنري دونان (جنيف، اللجنة الدولية للصليب الأحمر).

Warrior without Weapons by Marcel Junod (Geneva: ICRC).

الصليب الأحمر والهلال الأحمر: ملامح حركة دولية (جنيف: اللجنة الدولية/ الرابطة).

مجلة الصليب الأحمر والهلال الأحمر (من رابطة جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر).

كان هنري دونان -مؤسس الصليب الأحمر- مواطناً سويسرياً مجهولاً يدير شركة صغيرة؛ ساقته الأحداث إلى مسرح واحدة من أبشع معارك القرن الماضي -معركة سولفرينو في إيطاليا. فولّدت في ذهنه فكرة تأسيس الصليب الأحمر.

وفي تلك المعركة لقي آلاف الجرحى نحبهم بسبب الإهمال، يزيد من آلام احتضارهم العطش والذباب والأمراض. ويبدو أن السلطات العسكرية كانت تنظر إلى ذلك على أنه أمر ملازم للحرب.

قطع دونان رحلة أعماله ليرعى المحتضرين وينظّم المتطوعين محلياً ليضعوا الضمادات ويجلبوا الماء الصالح للشرب. وصُعق إذ رأى أن أحداً لم يخطط، قبل المعركة، لرعاية الجرحى، وكان مقتنعاً بأنه لو وجدت هيئة من المتطوعين المدربين، لأمكن إنقاذ حياة آلاف الجنود.

وقد ألّف هنري دونان كتاباً بعنوان «تذكار سولفرينو» وضع فيه كل مشاعره. ولم يخف عن قرائه شيئاً لدى وصفه أهوال المعركة، فنجح في دفع الرأي العام العالمي إلى مشاطرة اهتمامه وقلقه. ثم انشىء الصليب الأحمر ووضعت اتفاقيات دولية تنظم معاملة الجرحى والأسرى في زمن الحرب.

وعلى مدى السنوات المائة والخمس والعشرين الماضية نما عمل الصليب الأحمر والهلال الأحمر فأصبح يشمل أسرى الحرب والأشخاص المفقودين وضحايا الكوارث الطبيعية والتبرع بالدم والإسعافات الأولية، بعد أن كان قد بدأ برعاية الجرحى. وأضحى اليوم أكبر حركة إنسانية في العالم، ينتشر أعضاؤها في ١٥٠ بلداً.